

تحت ظلال العرش

اسم الكتاب: تحت ظلال العرش
تأليف: منى مروان
تصميم الغلاف: محمد علي
المراجعة اللغوية: تفاصيل لخدمات ما قبل النشر
الإخراج الفني: عبدالعليم منا
رقم الإيداع: 2025/30182
الترقيم الدولي: 978-633-8368-09-8



جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

وأى اقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية، يُعرض صاحبه للمسائلة القانونية، أما الحقوق الملكية الفكرية والآراء والمادة الواردة في الكتاب فهي خاصة بالكاتب فقط لا غير.

- 📍 Alexandria - Egypt
- ☎ (+2) 01024541339
- ✉ tafaseelpublishing@gmail.com
- 📘 dar.tafaseel
- 📷 dar_tafaseel
- 🌐 <https://www.dar-tafaseel.com>

تحت ظلال العرش

رواية

منى مروان



إهداء

إلى الطيبين، الحالمين، إلى من يظنّون أن وقع خطاهم على الأرض لا صدى له، لكنه يتردّد برتابة وثبات في الفضاء الفسيح. لولا أتركم لكانت الحياة جافة خانقة. أتركم كالماء العذب البارد في يوم قائنظ شديد الحرارة، كشعاع نور لاح لتائه في عتمة ليل، كلقاء مغترب بأحبابه وأهله، كصلاة عيد، وغناء طير على نافذة طفلةٍ ترقبه بشغف وسعادة.

إلى نغم

صغيرتي، تلك الكلمات أكبر من عمرك الحالي، فاحتفظي بها وأعيدي قراءتها عندما تكبرين. الحياة يا عزيزتي تمضي نحو المستقبل، لا تقف عند ما نحن عليه الآن، فاجعليه مشرقاً كما تريدين.

منى مروان

الفصل الأول

بداية

الفقد هو الشعور الأقوى والأبقى، ليست قوّة الشعور في مدى تأثيره في الوقت الحالي، ولكن في مدى استمراريته. الفقدان هو شعور يتشاركه الجميع، يلازمهم طوال الوقت ولا يتحدّثون عنه، لأنه لا توجد كلمات مناسبة لوصفه، ولا توجد آليات لتحديده. ربما يخلجون من التعبير عنه. تشعر أن جزءاً منك غادرك للأبد لا تعلم إلى أين، تشعر بخواء في روحك، تشعر بثقوب في القلب يعجز الأطباء عن رتقها. حتى الشعراء والكتّاب يعجزون عن وصفه بالتحديد، فهم يحومون حوله في محاولة بائسة لرصده والإيقاع به، لكنهم بالكاد يُبصرون ظلاله، وهو يحاول أن يجعل القلب في حالة استكانة دائمة. وكلما جاهد القلب للخلاص منه، أعاد إليه الذكريات ولطمه بموجة من الحنين.

ثم ماذا إن اجتمع الفقد والظلم؟ كلاهما معًا يكبّلان الروح،
ينهشان القلب بلا رحمة، وينكآن الجروح فلا سبيل إلى الشفاء ولا
إلى العافية.

الظلم ظلمات، يبیت المرء في ظلمة الليل ويفيق ليلاقي ظلمة
الظلم تحاوط نهاره، لا مهرب ولا مفرّ من الذكرى. الظلم يجعل
المظلوم مضطربًا هائمًا يحاول التشبّث بالإيمان واليقين، لكن نفسه
المكلومة تدفعه نحو اليأس والاستسلام. يحاول أن يلوذ بالثوابت،
لكن تختلط عليه الثوابت بالشبهات. إنه مدخل الشيطان: لماذا أنت
بالتحديد؟ ماذا فعلت حتى تستحق ذلك؟ أهذا جزاء الاستقامة
والرضا؟ لماذا لا يُعاقب من يستحق؟ لماذا يموت الطيبون؟ لماذا
تركتني وحيدة أتجرّع مرارة فقدك ومرارة ظلم فقدك؟ لماذا يا
أخي؟

- ليلي، ليلي تعالي.

- ماذا هناك يا نادر؟

جرت ليلي باتجاه صوت أخيها المرتفع الذي أخذ يصدح في
الفراغ، فأحضر لها أخوها باقة صغيرة من الورد المختلفة، وأراد
أن يفاجئها.

ما رأيك في هذا؟

- رائع يا نادر، جميلة، من أين أحضرتها؟

- من قصر الملك.

- ماذا؟ كيف؟ كيف ذهبت إلى هناك؟
- كنت أبيع لهم أسماكًا يا ليلي، ورأيت الزهور فاستأذنت الحارس أن أحصل على بعضها.
- وهل وافق هكذا بسهولة؟
- في الحقيقة لقد أعطيته السمك بلا مال من أجلك يا ليلي، وقد أحضرت مثلها لعلياء أيضًا.
- اعترفت إذًا، هي لعلياء وأنا جئت مصادفة في الطريق، أليس كذلك؟ قالتها مازحة وهي تحاول مشاكسته.
- يا ظالمة، أنتما الاثنتان لا فرق بينكما، ولكنه طبع النساء.
- لا تحزن يا أخي، أمازحك، زهورك لا بأس بها.
- أنت مشاكسة يا ليلي، وويلٌ له من سيتزوجك.
- أنا أريد أن أعيش في قصر يا نادر.
- يليق بك يا ليلي.
- لا يا نادر، لست ممن يطمحون إلى السلطة أو القصور، أنا أحب حياتنا هنا وأسعد بها كثيرًا معكم، مع عائلتي وأحبابي.
- لا أحد يعلم ماذا يخبئ لنا الزمن يا ليلي، عسى أن يكون مستقبلك جميلًا كجمال هذه الزهور يا حبيبتي.

كانت تجلس تراقب أول خيوط الشمس الحمراء وهي تخرج من سباتها على استحياء، معلنةً بداية يوم جديد. اجتاحتها الذكريات، وقلبها مضطرب كاضطراب البحر وأمواجه التي كانت تضرب أقدامها. ساكنة في الظاهر، لا يرمش لها جفن. جلست تراقب الموج وعقلها شارداً، وصفحة وجهها تعكس جمال المنظر. الناظر إليها يقع في حيرة من أمره: أهي أجمل أم البحر والسماء؟ إنها ليلي.

أفاقت ليلي من شرودها على صوت ابنة أخيها سارة تناديها صائحة من الخلف: "عمّتي، عمّتي ليلي، هيا، أمي تدعوك لتناول طعام الفطور معنا."

التفتت إليها ليلي باسمه وقالت: "هيا بنا يا سارة، فأنا فعلاً جائعة. هل أنتِ جائعة أيضاً؟"

قالت سارة: "أجل يا عمّتي، للغاية، وعلينا أن نسرع حتى نلحق الطعام قبل أن يلتهمه الباقون ولا يتركوا لنا شيئاً، فهم لا يرحمون."

انطلقت ضحكات ليلي عالية من كلام الصغيرة، وواصل السير سوياً إلى بيتهما القريب من الشاطئ حيث يوجد البقية. بيت صغير ذو طابق واحد، محاط بالنخيل والأشجار التي تنمو في الأرض الصحراوية، يجاوره بيوت الصيادين والعمّال في هذه المدينة. بيوت البسطاء بسيطة كسكانها، ودافئة ومليئة بالود مثلهم أيضاً.

ليلى فتاة في الثلاثينيات من عمرها، رقيقة الطبع، رشيقة القوام، تتهادى على مهل بخطى ثابتة، بهيئة الطلعة، برونزية البشرة لكثرة التعرّض للشمس، واسعة العينين بلون رمادي وأهداب طويلة، شعرها أسود طويل يكلّل ملامح وجهها الدائري الناعم. لوحة فنية متناسقة ومريحة للعين.

هي مطمع لكل شباب البلدة، غير أنها آثرت عدم الزواج بعد وفاة أخيها. فقد توفّي وترك وراءه ثلاثة أطفال يحتاجون إلى رعاية وإنفاق. سارة هي الصغيرة، ولها أخوان يكبرنها: خالد وياسر. مات أخوها نادر وزوجته علياء كانت لا تزال تحمل سارة في بطنها. كانا يتمنيان أن تُولّد أنثى، واتفقا على تسميتها سارة، لكن نادر لم يرَ سارة أبدًا.

ذات يوم خرج أخوها نادر للعمل. كان يعمل صيادًا ويبيع الأسماك في سوق المدينة، كما اعتاد أن يفعل والدهما. وكان أبوهما دائمًا ما يردّد: "الصيد حر، لا أحد على الأرض يمكنه الوقوف أمامه، رزقه في البحر، وهو وحده من يستطيع إخراجه، الصيد في البحر كالطيور في السماء."

وبينما كان نادر يفتش الأرض وينادي على المارّة، جاءه أحد الجنود المقربين من الوزير صفوان، رئيس حاشية الملك، ليبتاع منه الأسماك. اختلفا على الثمن؛ الجندي يريد أن يأخذ البضاعة بثمن زهيد، لكن نادر أبى أن يبيعه إلا بثمنها الذي تستحقه، فهذا هو مصدر دخله وقوت أولاده، ولن يفرط فيه بهذه السهولة.

حينها اشتد الخلاف بينهما، فلطم الجندي وجه نادر. انتفخت
أوداجه واحمرّ وجهه غضبًا، فهو وإن كان بائعًا في السوق، إلا أنه
حرّ وليس عبدًا عند هؤلاء القوم. انتفض على إثر الصفعة وردّها إلى
الجندي.

استشطا الأخر غضبًا وأخذ يكيل الضرب لنادر، وفي النهاية
ضربه على رأسه ضربة قوية بسلاحه أردته قتيلاً في الحال.

حملوه إلى بيته صريعًا غارقًا في دمائه، بلا ذنب أو إثم، فقط
كان يحمي حقه وحق أولاده الصغار. بعض النقود القليلة تسببت
في مقتله. فزع كل من في البيت من هول المنظر. صرخت أمه
الطاعنة في السن: "ولدي، ولدي"، وظلّت تبكي وتنتحب. راح
صوتها من شدّة صراخها وخارت قواها. كانت تلثم التراب وتضرب
صدرها براحة يديها.

زوجته علياء دخلت في نوبة لطم ونحيب متواصل، وكانت
عيناها متحجّرة وبارزة كأنما نضب نهر الدمع فيهما. أمّا ليلي
فكانت تبكي بحرقة وفزع وهي تحتضن الصغار، وقد شحب
وجهها شحوب الموتى، واصطبغت شفثاها بالزرقة، وسرت رعشة في
جسدها حاولت السيطرة عليها دون جدوى.

ها هو أخوها مسجّى أمامها بلا حراك، غارقًا في الدماء. اللعنة
على القتلة، اللعنة على الملك، اللعنة على الظالمين، كيف ينامون
وأيديهم ملطّخة بدماء الأبرياء؟

في تلك اللحظات يشعر الإنسان بالفراغ، كأنه خاوٍ من الداخل، هوة كبيرة ساحقة تبتلعه من داخله، محاطة بنيران تأكل الروح ببطء وعلى مهل. كيف لك أن تتوقف عن الحياة وأنت حي، وكيف تريد أن تصرخ ولا تستطيع، تكبلك الآلام. كان ذلك شعور ليلى.

مرّت الأيام وعادت العائلة الصغيرة إلى حياتها، وتناست الألم ظاهرياً وإن كانت القلوب تفيض به. ليلى لم تنس ولن تنسى؛ أخوها رفيق صباها وأملها في الحياة ذهب دون سابق إنذار. ذهب بسبب تجرّب جندي من حاشية الملك، وما كان هذا الجندي ليتجرأ على قتل رجل بسيط كأخيها إلا إذا كان يعلم أنه لن يُعاقب وأنه مسنود الظهر.

هي لن تنسى، ولن تهدأ، ولن ترتاح حتى ترى انتقام الله من هؤلاء القوم الذين عاثوا في المدينة ظلماً وخراباً. كانت تدعو عليهم ليل نهار، في صلاتها وفي خلواتها، بلسانها وبقلبها. لم يكن الأمر سهلاً أبداً.

أخبرها الجيران أن تنسى وتعيش حياتها، وأن الحزن لا يعيد من مضى. أخبروها أن تتزوج وتحيا حياة كل أنثى خلقها الله لبيتها ولزوج يربعاها. لكنها كانت ترد:

"ولن أترك أبناء أخي الثلاثة؟ أنا وهبت نفسي لرعايتهم حتى يطمئن أخي في قبره وينام بسلام."

كانت ليلى تعمل في حياكة الملابس، وكانت ماهرة في عملها. تعلّمت المهنة من جدتها الراحلة التي كانت تخطئ أثواب الجيران

جميعاً. وقد أتقنت ليلي الحرفة وفاقت جدتها بذكائها وخفتها، فراحت تتبكر وتُحدِّث تفاصيل جديدة في الأثواب. كانت تمتلك موهبة بالفطرة، فذاع صيتها بين نساء المدينة، وجاءتها عليه القوم يقصدن أثوابها المنمَّقة التي تليق بسيدات المدينة وصاحبات المكانة العالية.

كانت تشعر أنّها لا تحيك الثياب فقط، بل تحيك أوجاعها معها. تفصلها على القماش، وتثبتها بالخياط. لكنّ الأوجاع تعود إليها بمجرد انتهائها من الثوب، فتهرع إلى ثوب آخر بلمس أكثر نعومة، علّ نعومة الثوب تُنسيها مرارة الألم هذه المرّة. كانت الأثواب تخرج رائعة، بحجم الألم، وبحجم إرادتها في الانفكاك منه.

بينما كانت ليلي تحيك بعض الثياب في شرفة منزلها الصغير، وصوت أمواج البحر يُغني في الأفق، تسمعه ليلي وتأنس به، إذ نادتها سارة قائلة:

"عمّتي ليلي."

قالت سارة وهي تنظر بعيداً ناحية طفلة تلهو مع إختوتها وأبيها وهم يجهّزون مركبهم للصيد. ردّت ليلي: "نعم يا سارة."

- "هل كل الناس لديهم عائلة؟"
- "نعم يا سارة، كل الناس لديهم عائلة."
- "وهل هذه العائلة تتكوّن من أب وأم؟"
- "أجل عزيزتي." قالتها ليلي وهي مشغولة الذهن بعملها.

- "إذن أين أبي يا عمّتي؟ لقد أخبرتني أنّه قد رحل إلى دار أخرى بعيدة عن ديارنا، وأنّه ذهب إلى خالقه. ولكن ليس لديّ أب الآن. لماذا اختار الرحيل على مرافقة طفلة الصغيرة؟ حتى إخوتي ربما نعموا برفقته سنوات، أما أنا فلم أراه قط."

للحظات ظلّت ليلى صامته ومتفاجئة، لا تدري بما تجيب الصغيرة. رفعت رأسها عن الثوب ونظرت إلى سارة. لم تستطع أن تخبرها بأنّ أبها قد قُتل، وبأنّه لم يختَر شيئاً. ما زالت طفلة، وخبر كهذا سيصدمها كثيراً. ابتسمت ونظرت حيث كانت سارة تنظر، ثم احتضنتها برفق وداعبت خصلات شعرها الناعمة، وقالت:

- "لا بأس عليك يا صغيرتي، نحن معك: أنا وأمك وإخوتك وجدتك أيضاً. كل هؤلاء هم عائلتك. والوالدك لم يختَر أن يتركك، فهذا قدر الله، وإذا جاء لا يستطيع أحد منعه. هوني عليك يا سارة، ما رأيك أن نلعب سوياً لعبتنا التي تحبينها كثيراً؟"

- "لا يا عمّتي، أنا أريد أن أكل." قالتها سارة وهي عابثة.

ضحكت منها ليلى وقالت: "هكذا أنت يا سارة، دائماً عندما تحزنين تأكلين. هيا إلى الداخل لنرى ماذا أعدّت أمك من الطعام."

دلفتا إلى المنزل، فوجدتا علياء تُعدّ أصناف الطعام، وأمّ ليلى تُحضّر الأطباق رغبةً منها في المساعدة، بينما كان الولدان يلعبان معاً معركةً وهميةً بالسيوف. أسرة بسيطة لديها أحلام كأي أسرة في المدينة، غير أنّ تلك المدينة لا تدع الأسر تحلم.

وبينما هم في انتظار المائدة، إذ طرق الباب. فتح خالد الباب
وسمح لُعلًا بالدخول. دخلت عُلا حزينَة وواجمة، فهبت ليلي من
مقعدِها وأقبلت إليها قائلة بقلق:

" ما بكِ يا عُلا؟ "

ردّت عُلا بصوت مكتوم وحزين:

" إنه عمي يا ليلي. "

- " هل ضربكِ مجددًا؟ "

سكتت عُلا ولم ترد.

- " هيا تعالي معي إلى غرفتي. "

نادتهما أمها:

" يا ليلي، تعالي إلى المائدة أنتِ وعُلا. "

قالت ليلي:

" ليس الآن يا أمي. "

في غرفة ليلي انفجرت عُلا في البكاء:

" ذلك الرجل، الذي لا أعلم كيف يكون عمي، ضربني وأهانني
لأنني لم أحضر له نقودًا منذ مدة. لقد تعبت يا ليلي، تعبت، ووددت
لو أنهيت حياتي وتخلّصت من معاناتي. "

أسرعت ليلي إليها، وأخذت تُربّت على يديها وتُجفّف دمعها

قائلة:

"عُلا، لا تقولي ذلك. كيف لك أن تفكّري في إنهاء حياتك؟ هل هي لعبة أو أن القرار بيدك؟ لا تفقدي إيمانك بربك، إنَّ مع العسر يُسرًا بإذن الله. لقد أخبرتك أن تأتي لتعيشي معي في بيتي وتتركه، وأنا سأفرح بذلك كثيرًا يا عُلا. أنتِ صديقتي الوحيدة، وأختي أيضًا."

"ليلي، أنا أعلم ذلك، ولكن لا أريد أن أسبّب لك الأذى. عمي لن يتركني أعيش في بيتك، سيأتي ويأخذني، وسيكون الأمر أكثر تعقيدًا."

نظرت ليلي إلى عُلا نظرةً حانيةً واثقةً وقالت:

"أنا لا أخافه، فقط أنتِ خذي القرار، وأنا معكِ إلى النهاية."

احتضنتها عُلا وشكرتها على دعمها، وأخبرتها ألا تقلق بشأنها. باتت تلك الليلة في بيت ليلي، نامت مطمئنة وهي تعلم أن صديقتها إلى جوارها، صديقتها المخلصة القوية. نامت عُلا، بينما ليلي لم تستطع النوم إلا بعد مدة من الوقت، وكانت توارى دموعها عنها. كادت أن تذهب إلى عمها هذا وتضربه في وجهه عمّا يفعله بها. كانت تشفق كثيرًا على صديقتها منه. أيّ نوع من الرجال هذا؟

فكّرت: لماذا يرتبط الضعف بالفقر؟ ولماذا يرتبط الفقر بالضعف؟ هل هما صديقان يتهاامسان سرًا بأسماء الفقراء؟ ولماذا الطيبون الحالمون كُعلًا لا يملكون المقاومة؟ لماذا تبكي عُلا ببساطة بدلًا من أن تقوم إلى عمها هذا وتنهره وتحذّره من انتقامها؟ ما الذي يجعل البعض ينتظر حدثًا خارقًا للعادة يعدّل له موازين

حياته؟ أليس البعض هذا والبعض ذاك هم الكل؟ إذن الكل ضعيف، الكل متخاذل، الكل ينتظر أحداثاً غير عادية تحدث من تلقاء نفسها فتغيّر مصير الكون.

نامت ليلي في النهاية وهي تفكّر في حلّ لوضع عُلا المحزن، لعلّ الصباح يأتي بفرج قريب.

عُلا، الصديقة الوحيدة لليلي والتي تصغرها بعامين، لم تتزوج أيضاً، وتعمل مع ليلي في حياكة الملابس وتطريزها. تعلّمت من ليلي الكثير والكثير، وظلّتا تعملان معاً حتى توطّدت صداقتهما.

توشّحت عُلا بوشاح اليتيم منذ الصغر، وتربّت على الانصياع والحاجة. مات أبوها وماتت أمها، وتولّى عمّها تربيتها، غير أنّه كان قاسياً عليها، فلم يُدّلّها أو يُنفق عليها كما يجب. نشأت ضعيفة محرومة، غير قادرة على اتخاذ قرارات مهمّة. كانت هزيلة الجسد، شاحبة الوجه، كأنّما امتدّ ضعفها إلى ملامحها.

هي لم ترفض الزواج، ولكنّها لم تكن تمتلك جمالاً يجذب الخُطّاب إليها. ومن تقدّموا لخطبتها كانوا إمّا رجالاً يرغبون في خادمة أكثر من زوجة، أو آخرين لا يمتلكون حتى ثمن قوت يومهم. ولم يُرد عمّها تزويجها لأيّ منهم، لأنّه كان يأخذ منها أجر عملها ويعطيها مبلغاً زهيداً بالكاد يكفيها، وأحياناً لا يكفيها، فكانت ليلي تعطيها بعض النقود وتطلب منها ألا تخبر عمّها بذلك. وكانت تشفق عليها كثيراً.

عُلا فتاة طيّبة، حلوة المعشر، ولكنها سيئة الحظ. بالكاد يلمحها البعض، وبالكاد تعترف بها الحياة.

في قصر الحكم، قررت الأميرة زُمرد زوجة الأمير عمر، ابن الملك ووليّ العهد، إقامة عشاء لزوجات الوزراء ومعاونيهم وكل السادة في المدينة. تحدثت إلى وصيفتها وهي تسير في بهو القصر قائلة:

"أريد عشاءً هادئاً ومميزاً كالعادة. علينا إبهار هؤلاء السيدات بقصر الأميرة زُمرد. أخرجني لي أجمل الثياب، وهيا بنا لآتفقد أمر العشاء بنفسي."

ردّت الوصيصة بصوت مرتجف:

"حاضر سيدتي، سيكون كل شيء كما تريدين تماماً."

في الحفل رحبت الأميرة زُمرد بالسيدات ودعتهن إلى مائدة الطعام، وسارت تنقل نظراتها بينهن بجرأة، وهنّ لا يستطعن الاعتراض. لفت نظرهما امرأتان لا تعرفهما، كانتا ترتديان ثياباً مميزة جداً، لم تر الأميرة زُمرد في جمالها من قبل. حتى أنّهما لفتا أنظار كل النساء في الحفل، مما أعاظ الأميرة زُمرد، فهي لا تريد لأي امرأة، مهما كانت، أن تكون مميزة ولافتة للأنظار في حضرتهما.

انتهى الحفل، وسألت الأميرة زُمرد وصيفتها عن المرأتين: من هما؟ ومن أين أتيتا بتلك الثياب الرائعة؟ فأخبرتها الوصيصة بأنّ

فتاة تُدعى ليلي، تسكن في أطراف المدينة عند البحر، لها ذوق خاص في حياكة الثياب، وأن هاتين المرأتين قد ارتدتا ما صنعتته ليلي لهما. أرسلت الأميرة زُمرد في طلبها على الفور.

باتت ليلي ساهرة تفكّر في العرض الذي عُرض عليها: هل ستذهب للعمل هناك فعلاً؟ هي بحاجة إلى هذا المال بشدّة؛ أمّها مريضة، وثلاثة أبناء، وزوجة أخيها لا تستطيع العمل، إذ يكفيها تدبير أحوال المنزل والأبناء وأمّها المريضة. ليلي هي من تعول البيت بعد أخيها. كانت تحمد الله كثيراً أنّها تتقن هذه الحرفة وتمتلك ذوقاً خاصاً فريداً كذلك، ولولا ذلك، فماذا كانت ستفعل لتعول هؤلاء الأبناء وأمّها؟

لكن يبقى السؤال: هل ستذهب فعلاً للعمل في قصر من قتلوا أخاها؟ نعم، ليس الملك أو الأمير أو الأميرة من فعلوا، ولكن جنودهم، وهذا يكفي ليكونوا هم أيضاً قتلة أخيها. ومع ذلك، فهي بحاجة إلى المال الذي سيوفّره العمل هناك لها. ماذا تفعل؟ وأخذت تحدّث نفسها: "ساعدني يا الله، ساعدني، أرشدني إلى الصواب."

سمعتها أمّها فذهبت إليها، ونادتها:

- "ليلي، هل أنتِ مستيقظة؟"

- "نعم يا أمّي."

- "هل أنتِ بخير يا ابنتي؟"

- "بخير يا أمي، لا تقلقي."

- "إِذَا، لِمَ أَنْتِ مستيقظة إلى الآن؟ ماذا يشغل بال حلوتي؟"

وذهبت أمها إليها واحتضنتها بحنان الأمّ التي تعلم أنّ هناك شيئاً يشغل بال ابنتها ويمنعها النوم في ساعة متأخرة من الليل.

- "ليس شيئاً محدّداً يا أمي، فقط أبناء أخي ومصيرهم، وهل سأستطيع مواصلة رعايتهم كما ينبغي. أمور كهذه يا أمي. أريد أن أراهم خير أبناء المدينة، أريد لأخي أن يفخر بأبنائه كأنه ما زال حياً بينهم، بل وأكثر يا أمي. لا أريد التقصير في حقهم قيد أنملة، ولا أعلم إن كنتُ سأستطيع أم لا."

- "هوني عليكِ يا ابنتي، كل شيء بأمر الله. اطلبي العون من الله يُعَنِّكَ وَيَقْوِيكَ يا حبيبتي، وافعلي كل ذلك لوجهه، وستجدين التوفيق حليفك بإذن الله. تعلمين يا ليلي، لستِ مضطرة لكل ذلك يا حبيبتي. تعلمين أني أخاف عليكِ أنتِ أيضاً. أريد لكِ زوجاً وأبناءً. ماذا لو تزوجتِ واعتنيتِ أيضاً بأبناء أخيك؟ هل ستتركين سنين عمركِ تضيع من بين أصابعكِ يا ليلي؟"

قالتها أمها وأوشكت على البكاء خوفاً وحسرةً على ابنتها. ككل الأمهات، تريد أن ترى ابنتها على نعمة رجل يتقي الله فيها، يحبها ويرعاها ويخفف عنها حملها، ولكن ليلي أبت الزواج.

كانت تخشى أن تتزوج فتنشغل عن أبناء أخيها ويضيعوا في الحياة، ولن تسامح نفسها يوماً إن حدث ذلك.

- "أمي، بالله عليك كفى. هوني عليك أنتِ يا أمي، لا تقلقي بشأني. صدقيني، أنا بخير حال. والزواج لن يغيّر من همّي شيئاً، بل ربما يثقله أكثر. كل شيء بأمر الله، ولا تدرين، ربما يحدث ذلك في وقت آتٍ، من يدري."

ابتسمت لها الأم ابتسامةً من لا يقدر على فعل شيء، وقبّلتها وقالت:

"إذاً، اخدي للنوم الآن، واتركي الله يُدبر لك أموركِ يا جميلة، ولا تفكّري في شيء، فالأرزاق بيد الله، وليست بيد أحد، ولا حتى بيدكِ أنتِ."

لم تشأ ليل أن تخبر أمها بما يتعلّق بعملها في قصر الملك، فقد أرادت أن تتخذ القرار بعيداً عنها، حتى تتجرّع وحدها مرارة الألم والخذلان إذا ما وافقت على الذهاب، وتُبقي أمها بعيدة عن أي ألم أو ذكرى. فكّرت بأنّ أبناء أخيها أحقّ بتلك النقود التي ستأتي بها من قصر الملك. نعم، ستذهب وتعمل هناك، تحيك ملابس الأميرة والوصيفات، وكلّ من أراد أن يلبس من صنع يديها.

ذهبت إلى نافذة شرفتها، وتنشّقت هواء الساعات الأخيرة من الليل، هواءً يأتيها مباشرة من البحر الذي تعشقه. تخلّل الهواء

خصلات شعرها، وداعب عينيها ووجنتيها برفق. شعرت بالنعاس
يتسلل إلى أجفانها مع النسيم البارد، فذهبت إلى فراشها ونامت،
وقد علمت أنّها اتخذت قرارها، ولا رجعة فيه.

الفصل الثاني

في القصر

في الصباح، استيقظت ليلي بجهد بالغ نظرًا لنومها متأخرة، ولكن سرعان ما تنبّهت حواسها جميعًا عندما تذكّرت أن لديها موعدًا مع الأميرة زُمرد اليوم. نهضت على عجل، وتناولت بعض الطعام مع أبناء أخيها، وداعتهم قليلًا، خاصة الصغيرة سارة، حبة قلبها، ثم ودّعتهم منصرفَةً إلى صديقتها عُلا.

ذهبت ليلي لتخبرها بأنّها تحتاج إليها لتكون رفيقتها، وتعملان معًا في قصر الملك. ستقدّمها للأميرة على أنّها مساعدتها، وستتفق على أجرٍ لها. لن يرفض عمّها عرضًا كهذا أبدًا، بل سيسعد كثيرًا. فرحت عُلا بتلك الأخبار، وسارتا سويًا نحو القصر.

حراسةٌ شديدة وجنودٌ أشدّاء على أسوار القصر الخارجية، وبوابةٌ عظيمة مُرصّعة بالزخارف. أوقف الجنودُ ليلي وعُلا،

فأخبرتهم ليلى بأمر عملها هنا وموعدها مع الأميرة زُمرد. ذهب أحد الجنود للتأكد من صحة كلامها، ثم عاد ليفسح لهما الطريق للدخول.

دلفتا إلى الداخل، فإذا بأشجارٍ ونباتاتٍ وزهورٍ من مختلف الأنواع تزيّن حديقة القصر التي يمتدّ ممرّ الدخول خلالها. "أهذه جنة الله على الأرض أم ماذا؟" حدّثت عُلا نفسها، وظلّت تنقل بصرها هنا وهناك، وعيناها لا تكادان تلاحقان المناظر الخلّابة.

أمّا ليلى فكانت تنظر وعلاماتٌ مبهمة على وجهها: ضيق، أو غضب، أو استنكار، أو اشمئزاز، أو ربما عدم اكتراث. لم تتمكن عُلا من إدراك ما يختلج في قلب صديقتها؛ فهي دائماً ما تعجز عن فهم غموض ليلى وصمتها الذي يغلب عليها. عُلا تعبّر عن مشاعرها بوضوح ولا تستطيع إخفاء أيّ منها، على عكس ليلى التي لا تستطيع عُلا التفاعل مع مشاعرها غير المعلنة.

استمرّتا في السير حتى دخلتا بهو القصر، وهناك قادتهما الوصيفة إلى الأميرة زُمرد في جناحها الخاص. كان الجناح كالسور والحديقة والبهو: كل شيء رائع بشكل لم تشاهده ليلى أو عُلا من قبل. كل شيء محاط بالزخارف والنقوش، والثريات تتدلّى كفراشات معلّقة. حتى البساط الذي تمشيان عليه بأقدامهما بدا أكثر نعومةً من ملابسهما الرتّة. وكيف لا، وهذا قصر الملك.

تكلّمت الأميرة زُمرد أوّلاً:

- "مَن أنتما؟"

قالت ليلى بعدما جاهدت في إخفاء حنقها جانباً:

- "هذه أنا ليلى، وتلك مساعدتي عُلا. جئنا بناءً على رغبتك يا مولاتي للعمل هنا في القصر بحياكة ملابس الأميرات والوصيفات."
ظهر الغضب واضحاً على وجه الأميرة زُمرد. نظرت إلى ليلى بتحدٍّ بعدما صمتت لبرهة وقالت:

- "ليس هنا أميرات غيري، أتفهمين؟ الباقي وصيفاتٌ وعاملاتٌ وخادمات."
تابعت الأميرة:

- "سمعت عنكِ الكثير يا ليلى من عليّة نساء المدينة، وزوجات الوزراء والقضاة والضباط. ولكن من الآن فصاعداً ستحيكين لي ملابسنا فقط، وكذلك للعاملين في القصر، ولكن طبعاً بعد الانتهاء من أثوابي. هنا العاملات في القصر يرتدين ثياباً ذات نمط خاص، أما أنا فأريد منك أن تُريني إبداعك في أثواب الأميرة زُمرد. وإن جذبني ذوقك، فصدقيني يا ليلى ستسعين كثيراً بعملك هنا، وستتقاضين النقود التي تكفيك وأكثر، أنتِ ومساعدتكِ."

صمتت ليلى قليلاً، ثم قالت بهدوء:

- "حسناً يا سيدتي، متى نبدأ العمل؟ إن أردتِ فأنا جاهزة للعمل الآن."

- "لا، ليس الآن. اذهبي أنتِ ورفيقتكِ مع الوصيفة لتتفقدوا غرفة العمل. ستجدان بها كل ما يلزم للعمل والراحة أيضاً، وإن

وجدت شيئاً ناقصاً فاطلبي منها إحضاره. تصرّفي بحرية، أنتما مرحب بكما هنا. لكن ربما تحتاجان إلى ثياب جديدة، لذلك أوّل من تبدئين بحياكة ثوب له هو أنتِ ورفيقتكِ. ستجدان ما تريدان من القماش، فاصنعا لأنفسكما ما يناسبكما من الثياب بدلاً من تلك المهترئة. من يحيك ملابس الأميرة زُمرد لا بد أن يهتم بمظهره جيداً. والآن انصرفا."

مشت ليلٍ والغیظ یقتلها، وكادت تتعثّر في مشيتها. تبعتها علماً التي لم تعلم لِمَ ليلي غاضبة إلى هذا الحد. كتمت ليلي غيظها أمام الوصيفة، وانتظرت حتى انصرفت، ثم أفرغت ما بها من غضب وإحباط في علماً، وقالت وهي تذرّع الغرفة جيئةً وذهاباً:

- "تقول الآن: انصرفا! بهذه البساطة، بعد إهانتنا بهذه الطريقة؟ تلك المتعجرفة الباردة كالثلج! تبا لها ولكل من يقيم هنا في هذا الثراء، تاركين الناس في الخارج يأكلون الفتات وبالكداح يحصلون عليه. تبا لهم جميعاً! أذاقهم الله حسرة قلوب الفقراء، وأذاقهم الله ويلات الثكالى واليتامى الجائعين في الخارج."

فزعت علماً ووقفت أمام ليلي تحاول تهدئتها قائلة:

- "ششش... اهدئي يا ليلي، اهدئي أرجوكِ قبل أن تسمعكِ إحداهن وتذهب لتخبر الأميرة بأمركِ. نحن في عرين الأسد يا ليلي، وإن كنتِ تنوين جعله يأكلنا، فدعيني أذهب بسلام يا عزيزتي، أنا لا طاقة لي بهذا."

هدأت ليلي وابتسمت استجابةً لردّة فعل عُلا المبالغ فيها، ثم
قالت:

- "لا تخافي يا عُلا، أنا لن أتسبّب في إيذائك أبداً. لا تقلقي
يا حلوتي. والآن، هيا لنبدأ العمل. سأصنع لك ثوباً يليق برقتك يا
عُلا. أنتِ من تستحقين أن ترتدي هذه الأقمشة الناعمة. هيا لنبهر
الأميرة زُمرد."

في قاعة الحكم جلس الملك على عرشه متوجّاً، يحيط به حاشيته
من الوزراء والقضاة، وعلى رأسهم جلس الوزير صفوان، صاحب
الكلمة بعد الملك في الظاهر، لكن في الباطن كان هو الحاكم الفعلي
للبلاد. كان صفوان نحيل الجسد، متوسط الطول، داكن البشرة،
حادّ الملامح على نحوٍ يجسّد طبعه الحازم وصرامته ودهاءه.

جلس على مقربة من الملك ابنه الأمير عمر، وليّ العهد، ودار
الحوار على النحو التالي:

- "مولاي، لا بدّ من فرض حصة لبيت المال كما أخبرتك
مسبقاً يا سيدي. نريد القيام بإصلاحات في المدينة، كما نريد تجهيز
الجيش وتسليحه بما يليق بمملكتنا، وخزينة الدولة لا تكفي. إن لم
يقف الشعب مع دولته وملكه، فمع من يقف؟ وأظنّ الناس
سيسعدون بهذه الإصلاحات، فهم من تتعثّر عرباتهم وخيولهم في
الطرق، وهم من يشكون من اللصوص والعصابات في الليل. إذًا،

لا بدّ من تقوية الجنود وإمدادهم بالسلاح اللازم لمواجهة أي اعتداء من أي جهة. ماذا ترى يا مولاي؟"

كان المتحدّث الوزير صفوان، الذي أظهر وُدًا خالصًا للملك أثناء الحديث، إذ دنا من مقعده وتكلّم وهو منكس الرأس، خافض الصوت.

وقبل أن يتكلّم الملك، صاح الأمير عمر:

- "أيّ حصة بيت المال تلك التي تريد فرضها على الناس يا وزير؟! الناس كادوا أن يأكلوا التراب في الطرقات من شدة الفقر. هل ترى أنهم يقدرّون على دفع حصّة جديدة لبيت المال؟! هل تهذي أنت أم ماذا؟"

تكلّم الملك:

- "يا أمير عمر، الوزير صفوان يعمل لصالح الدولة، وأنا أعلم ذلك. ولكن يا وزير صفوان، ما رأيك في قول الأمير عمر؟ هل حقًا تعرّست أحوال الناس إلى تلك الدرجة؟"

- "الأمير عمر يا مولاي صاحب قلب كبير، يتأثر كثيرًا عندما يزور الناس في الأسواق. بعض البشر يا مولاي سمّتهم الطمع؛ يذهبون إلى السوق، وكل واحد منهم يودّ لو يحصل على كل أنواع الأطعمة والفواكه واللحوم. فماذا لو اكتفى ببعض الأصناف؟ يظنّ الناظر إليهم أنّهم لا يجدون ما يسدّ رمقهم. والأمير عمر غير متمرّس في تلك الأمور، لا يدرك طبيعة البشر في الخارج، ويظنّ أن الجميع شاكرون لفضل الله مثله. الناس في المدينة يا مولاي بخير

حال، وإن كان هناك قلة يحتاجون إلى الدعم، فالدولة تدعمهم ولا تترك الجوع ينهشهم."

احتقن وجه الأمير عمر بالدماء، واشتعل غضبًا من كلام الوزير صفوان، فقال:

- "أنت ترى إذا أنني ساذج وغير متمرس يا وزير، أليس كذلك؟ هل أبدو لك كأبله؟"

استغلّ الوزير صفوان انفعال الأمير عمر وتابع بهدوء:

- "العفو يا أمير، ولكن للحكم أمور أخرى لا تدري عنها شيئًا. ولذلك أرى أن ترتاح، ووزيرك صفوان سيفعل كل شيء لكي تبقى راية دولتنا مرفوعة عاليًا."

قال الملك حاسمًا الحوار بعدما استطاع صفوان إقناعه:

- "إذا، تُفرض حصة لبيت المال، وعلى الجنود أن يبدؤوا بجمعها من اليوم، من كل بالغ قادر على العمل."

عند هذا الحدّ غادر الأمير عمر قاعة الحكم زافرًا بغضب مكتوم، وهو يقول:

- "الويل لك يا صفوان."

كان الأمير عمر رقيقًا بالناس، قريبًا منهم، يزورهم ويتفقّد أحوالهم، ويقدم لهم الدعم والمساعدات بين الحين والآخر. كان شهمًا وشجاعًا، ولا يحبّ الحيل والتلاعب بالألفاظ كالوزير صفوان.

وكان الأمير عمر وليّ العهد المنتظر، غير أنّ الوزير صفوان لم يُعجبه ذلك الأمر، إذ كان يرى نفسه أحقّ بالحكم منه. بدا له ساذجاً فعلاً، غير صالح للحكم.

حتى أنّ صفوان فعل الأفاعيل، وأحدث بين الملك وبين الأمير عمر فجوةً وخلافاً دائماً. صار الملك يرى ابنه صبيّاً لا رجلاً ناضجاً، ويرى أنّه يفعل أفعالاً لا تليق بوليّ عهد البلاد. تلك الزيارات للناس والمساعدات منع الملك ابنه من تكرارها، بدعوى أنّها تنتقص من هيئته، وأخبره أن يُكَلِّف أحد الوزراء بفعل ذلك.

لكنّ الوزير صفوان حرص على ألاّ تصل تلك المساعدات مرّة أخرى إلى الناس، فهو لا يريد أن يكون الأمير عمر محبوباً بينهم. وبفضل محاولاته، صار الملك لا يعرف إن كان ابنه عمر صالحاً للحكم أم لا. لقد نجحت خططه إلى حدّ كبير في زعزعة المقعد الذي يتربّع عليه الأمير عمر.

ذهب الأمير عمر إلى الشرفة ليتنفس الهواء قليلاً علّه يخفّف ما به من غضب. كان طويل القامة، عريض الجسد متناسق البنية، ذا شعرٍ أسود ووجهٍ أبيض اللون، بأنفٍ بارز وفكٍّ واسع. كان يقف مولياً ظهره لباب الشرفة، مستنذاً بكلتا يديه إلى السور، مرتدياً ثياباً ملكيّة تضي عليه وقاراً وجلالاً. أخذ يزفر الهواء بصوتٍ مسموع يشقّ الصمت من حوله.

وبينما هو على ذلك الحال، جاءت الأميرة زُمرد من الخلف، وربّتت على كتفه وقالت:

- " ما بك يا عمر؟ "

قال الأمير عمر كأنه يحدث نفسه لا زوجته:

- " صفوان هذا لن يتوقّف عن أفعاله. ذلك البغيض الخبيث لن يتوقّف عن تشويه صورتني عند أبي، ولن يتوقّف عن الإفساد في المدينة. "

- " فلتحترق المدينة الآن! " قالتها بغضب، وتابعت: " وماذا فعلت ردًا عليه؟ هل تركت قاعة الحكم وخرجت كالعادة؟ دائمًا تترك له الجمل بما حمل، دائمًا تهرب يا عمر، وهذا سيؤدي بنا إلى الهاوية. أنت تعلم جيدًا أنه يخطّط لإبعادك عن الحكم، وأنت تترك له الساحة خالية ليفعل ما يشاء. لا تكن سلبياً يا عمر، افعل شيئاً. "

نظر إليها الأمير عمر بضيقٍ ونفاد صبر، وتركها وانصرف إلى الخارج دون أن ينبس ببنت شفة. دائمًا ما توبّخه زوجته الأميرة زُمرد كأنه طفل صغير لا يعلم ما يجب عليه فعله. هي جامدة كالصخر، جافة المشاعر، حادة الطبع، قويّة، تعلم جيّدًا ما تريد. تريد عرش الحكم لزوجها حتى تكون ملكة البلاد، وربما تريد أن تحكم هي بدلًا من زوجها وتستخدمه صورةً لا أكثر، كما يفعل الوزير صفوان مع أبيه الآن. لذلك كان صفوان عدوّها اللدود، لأنّه يريد إفساد مخطّطها.

أمّا الأمير عمر فكان فيّاض المشاعر، نبيل الطبع، كريم الخلق، يحبّ الناس، ويحبّ الشمس والنور والبحر والخيول والصحراء من حوله. لا يدري كيف وافق على زواجه من الأميرة زُمرد؛ كان صغيرًا

بعض الشيء، ولم يكن يدرك الأمور جيّدًا. اختارها أبوه ولم يُعارض هو. كانت على قدرٍ كبيرٍ من الجمال، جمال الشكل والخِلقَة، أمّا جمال الروح فتفتقده كثيرًا.

لم يُنجبا أبناءً إلى الآن، وكان أبوه يخبره بأنّ عليه أن يتزوَّج بأخرى لتنجب له الأبناء، غير أنّه في داخله كان يشعر بأنّه ليس عليه أن يكرّر الخطأ نفسه مرّتين.

انصرف الأمير عمر إلى جواده الأسود في حديقة القصر، فامتطاه وقد قرّر الذهاب إلى الخارج دون هدفٍ واضح. ربّما يذهب إلى البحر ليلقي إليه ما به من ضيقٍ وهمٍّ، فيلتقطه البحر بسلام، وينسى الأمير همومه مؤقتًا. جلسةٌ سحريةٌ اعتاد عليها كلّما ضاق صدره وأثقلته الهموم، ولم يرجع منها خائبًا يومًا.

وفي أثناء سيره خارجًا من القصر، لفت نظره فتاتان تعملان في غرفة قريبة بحديقة القصر، ولم يشاهد أحدًا يعمل هناك من قبل. ذهب إليهما وتحدّث:

- "مَنْ أنتما؟ وماذا تفعلان هنا؟"

قالت عُلا:

- "نحن نعمل هنا يا سيدي، استدعتنا الأميرة زُمرد لنحيك لها أثوابها الملكيّة وملابس الوصيفات كذلك."

قال الأمير متعجّبًا:

- "أثوابها الملكيّة؟! الأميرة زُمرد التي لا يُعجبها العجب،
وأكبر مَنْ يحيك الملابس في المدينة لم يستطع أن يحظى بقبولها،
ستلبس من صنع فتاتين مثلكما؟ أمر عجيب!"

استفزّ ليلي أسلوبه الساخر والمنتهمّ، فردّت:

- "وهل رأيتَ ما نصنع حتى تحكم علينا هكذا ببساطة؟ أم
هو افتراءٌ واستعلاءٌ فُطِرم عليه يا أصحاب المال والسلطة؟"

نظر إليها الأمير بتعجّب، وقد فغرتُ غُلا فاهها وجحظت عيناها
من هول ما سمعت من ليلي. فقال الأمير:

- "هل تعلمين مَنْ يُحدّثكِ؟"

- "لا أعلم، لكن لا شك أنّك من هؤلاء أصحاب المال والسلطة
كما قلتُ للتوّ."

- "أستطيع الآن أن أسجنكِ للأبد إن أردتُ، حتى تتأدّبي مع
وليّ العهد يا فتاة."

هنا كاد أن يُغشى على عُلا، أمّا ليلي فلم يرمش لها جفن. كلّما
رأت أحدًا هنا تذكّرت أخاها نادر. كلّ شيء يذكّرها به. أليس الجنود
في الخارج الذين يحرسون القصر هم مَنْ قتلوه؟ واحدٌ منهم يرتدي
نفس لباسهم ويمسك سلاحًا مثلهم. أليس هذا الملك ووليّ عهده مَنْ
يتركون هؤلاء الجنود يعبثون بأرواح الفقراء في المدينة، ويعبثون
بقوتهم ورزقهم؟ أليسوا جميعًا قد اشتركوا في مقتل أخيها؟! يطلب

منها أن "تتأدّب" معه، ولم ينظر إلى ما اقترفته أيادي حاشيته
وجنوده. أيّ منطق هذا؟ وأيّ أدبٍ يريده يا أمير؟

تفوهت عُلا قائلةً بارتعاش:

- "اعذرها يا أمير، هي لا تقصد. لم تكن تعرف أنك سيّدنا
الأمير. الصفح والعفو يا مولاي."

التفت الأمير عمر إلى ليلي قائلاً:

- "وأنت، ألن تعتذري؟"

- "لم أكن أعرفك يا سيدي."

- "فقط هذا ما تستطيعين قوله؟! اذهبا إلى عملكما. لحسن
حظك أنّي مشغول، ولن أضيع وقتي معكِ. ولكن يجب عليكِ بعد
الآن أن تتعلّمي كيف تتحدّثين مع وليّ العهد."

قالها وانصرف، وهو يفكّر في جرأة هذه الفتاة وعنادها.

تكلّمت عُلا بعدما انصرف الأمير:

- "هل جننتِ يا ليلي؟ ماذا تريدين بالتحديد؟ هل ستدفعين
بي إلى هلاكٍ وهلاكٍ؟ أخبريني يا ليلي بالله عليكِ كي أنجو بنفسِي
من الآن."

قالت ليلي:

- "اعذريني يا عُلا، كلّمّا رأيتُ أحدًا منهم تذكّرتُ أخي، ولكن
أعدكِ ألا يحدث ذلك ثانية."

قالت عُلا:

- "اعلمي أنّه لحسن حظّك أنّ الأمير عمر هو من تحدّثتِ إليه. إنّه ذو قلب رحيم يعطف على الناس في المدينة. لو كان أحدًا غيره ما تركنا أبدًا يا ليلي. نحن هنا يا ليلي لأجل المال، أبناء أخيك وأمك كلّهم يحتاجون هذا المال. لن يفيدك أن تُسجني في سجون هذا القصر إلى الأبد وتتركهم خلفك. تذكّري هذا جيّدًا قبل أن تندفعي خلف حماستك يا ليلي."

بدا التفكير على ليلي وهي تقول:

- "حاضر، أعدك يا عُلا أن أفعل."

قالت عُلا متنهّدة:

- "آه! كاد أن يُعشى عليّ يا ظالمة، وغاص قلبي في صدري، وكنتُ على وشك الشهادة وأنتِ تتكلمين هكذا مع الأمير عمر!"
ابتسمت ليلي وتعبّبت من خوف عُلا المتواصل الذي يلازمها. صممت برهة ثم قالت مازحة:

- "ولكن أخبريني يا عُلا، كنتِ تتكلمين عن الأمير عمر منذ قليل وتُكثرين من مدحه بشكلٍ مبالغ فيه. هل أنتِ معجبة به أو ماذا يا لئيمة؟"

ضحكت عُلا وقالت:

- "وهل تعتقدين أنّه قد ينظر لمثلي يا مجنونة؟! هو متزوِّج من الأميرة زُمُرد، جميلة الجميلات. أيتركها وينظر إلى المسكينة عُلا

صاحبة الحذاء البالي والثوب المهلهل؟ كفى سخافة يا ليلي. هيا بنا
كي ننجز عملنا اليوم، كي نتقاضى النقود الجميلة التي تشرح
الصدر."

ضحكت ليلي كثيرًا، وواصلت العمل مع صديقتها باهتمام
بالغ، كي تثبت للجميع، وأولهم الأمير الذي كان هنا منذ قليل، أنّها
أفضل من يصنع ملابس الملوك والأميرات في المدينة.

الفصل الثالث

اللقاء الأول

واصلت ليلي عملها في القصر كلّ يومٍ، ومعها عُلا طوال النهار، وعند الليل كانتا تعودان إلى بيتهما، وفي الصباح تواصلان العمل من جديد.

في أحد الأيام، بينما كانت ليلي تعمل في القصر، أرسلت الأميرة زُمرد في طلبها. دخلت عليها الوصيفة تُخبرها بأنّ الأميرة زُمرد تريدها حالاً. أرادت ليلي المماطلة وعدم الذهاب، ولكنّها آثرت أن تذهب في النهاية.

دخلت على الأميرة زُمرد وألقت التحية، فأشارت إليها الأميرة بأن تنتظر حتى تأذن لها بالكلام. كانت الأميرة زُمرد تتحدّث مع إحدى الوصيقات بجملٍ غير مسموعة، وهي تنقل بصرها إلى ليلي أحياناً.

لفتت ليلي نظر الأميرة زُمرد: هادئة، عاقلة، قويّة، وتفوح منها رائحة الكرامة والشهامة. وبرغم الفقر والحاجة، كانت أبيّة، يعلو قسماتها كبرياء ظاهر. وإلى جانب ذلك، جميلة. دبت بوادر الغيرة في قلب الأميرة زُمرد من تلك الفتاة الجميلة القويّة. ودّت لو نزعت عنها نزعة الكبرياء هذه. فلا أحد في حضرة الأميرة زُمرد يكون بهذا الشموخ؛ لا بدّ أن ينحني، أن يُظهر الانكسار والتذلّل كما يفعل الجميع.

بدأت الأميرة زُمرد الحديث:

- "هل انتهيتِ من الثياب؟"

قالت ليلي:

- "ليس بعد يا مولاتي، أريد المزيد من الوقت."

- "كما تشائين، لكن أريد أن أنبهر عندما تنتهين."

- "حاضر سيدتي، سأبذل قصارى جهدي."

- "أخبرني الخدم أنك لا تأكلين الطعام في القصر، هل هناك

شيء يضايقك؟"

- "لا شيء سيدتي، أنا فقط أتناول طعامي في منزلي قبل أن

آتي إلى القصر، وبذلك لا أجد شهيةً للطعام بعد ذلك."

نظرت إليها الأميرة زُمرد بتمعن، ثم تابعت:

- "كما يحلو لك. والآن انصرفي إلى العمل، وتذكري ما قلته لك: أريد أثواباً مبهرة."

عادت ليلي إلى عملها وهي تشعر بالغيظ من غلظتها واستعلائها. جاهدت حتى تستعيد تركيزها في العمل. لقد سبب لها هذا اللقاء القصير ضرراً بالغاً. كانت تحاول أن تتناسى أنّها موجودة هنا، في هذا القصر اللعين. تعكّر مزاجها وفترت طاقتها حتى نهاية اليوم، وتمنّت العودة إلى منزلها بأقصى سرعة.

ذات يوم، بينما كانت الأميرة زُمرد تجلس في غرفتها تتزيّن استعداداً للمغادرة، أخذت تنظر إلى انعكاس صورتها في المرآة. كانت شقراء بعينين خضراوين، وأنفٍ متناسق، وشفاهٍ وردية. شعرها الذهبي ينساب على كتفيها حتى أسفل ظهرها. امتدّت يدها تتناول مشطاً لتعيد ترتيب شعرها، لكن ثورته حولها جعلتها تشعر بأنوثةٍ طاغية.

"كم أنا جميلة"، حدّثت نفسها بذلك، لكنها لا تعلم سبب ابتعاد زوجها عنها. تذكّرت آخر مرة عندما جاءت تحدّثه، فدفعها دفعةً قويّةً وغادر غاضباً. هي تسعى لتتويجه ملكاً على عرش مملكتهم، لكن كلّما حدّثته في الأمر ابتعد وهرب بعيداً عنها. ربّما لأنّها لم تُنجب له أبناءً إلى الآن، يراها ناقصةً عن غيرها. حاولت كثيراً كسر الحواجز بينهما، لكنه لا يستجيب.

هي الأميرة زُمرد التي يتمنى أيّ رجل أن ينظر إليها عن قرب، أو أن تُخاطبه ولو بحديثٍ عابر، لكن زوجها يُعرض عنها ولا يريدّها.

كانت تحدّث نفسها بتلك العبارات وهي تبحث عن الحُليّ والزينة الموضوعّة أمام مرآتها. تفقدتها فلم تجدها. دقّقت البحث أكثر، لكن لا أثر. فكّرت قليلاً، ثم توقّعت ما حدث. ثارت وأخذت تنادي في الوصيفات. جنّ على عجل على صوت الأميرة الذي دوى في القصر. أمرتهنّ بالبحث عن الزينة المفقودة، وأمرت بإحضار ليلي وعُلا في الحال. لا بدّ أنّهما هما من سرق زينة الأميرة؛ فهما من العامّة، وآخر من دخل القصر.

أتت ليلي وعُلا ودخلتا على الأميرة زُمرد غير مدركتين لما يحدث حولهما. تكلمت الأميرة زُمرد:

- "أين زينتي؟ تكلمّا!"

قالت ليلي:

- "عفوًا يا مولاتي، أيّ زينة؟"

- "هل تصطنعين عدم الفهم؟ ليس هناك مَنْ قد يفعلها في القصر غيركما!"

قالت ليلي:

- "حقًا يا سيدتي، أنا لا أدري عن أيّ شيءٍ تتحدّثين."

- "أنتما سرقتما الزينة التي كانت في غرفتي، وإذا لم تعترفَا وتُخرجاها حالاً، ستُلقيان في السجن ما تبقى من عمركما إلى أن تموتا فيه!"

صُدمت ليلى من الاتهام المباشر لها ولعُلا من دون أدنى دليل، أمّا عُلا فأخذت في البكاء والتشنُّج، مما دفع ليلى لزجرها لتتوقّف عن ذلك. تابعت ليلى الحديث بعدما سيطرت على انفعالاتها:

- "لم نفعلها، وإذا كان هناك دليل يُدينني أنا وعُلا فلتأتي به."

احتدّت الأميرة زُمرد وعضبت غضباً شديداً من هدوء ليلى وردّها المباغت، وأخذت تُهدّد وتتوعدها بالجزاء والعقاب. وبينما هم كذلك إذ دخل عليهم الأمير عمر، ولاحظ التجمع والانفعال الواضح على الوجوه، فقال:

- "ماذا يحدث هنا؟"

ردّت الأميرة زُمرد:

- "تلك الفتاتان سرقتا زينتي وينكران."

قال الأمير عمر:

- "ماذا؟ وكيف عرفتِ يا أميرة؟"

تدخلّت ليلى:

- "سيدي الأمير، ليس هناك أي شيء يثبت أننا فعلنا ذلك الأمر المشين والجسيم. لا أعلم لماذا تشكّ الأميرة زُمرد في أمرنا."

قالت الأميرة زُمرد:

- "ومن غيركما؟ لا أحد يجروُ على فعلها في القصر."

قال الأمير عمر:

- "ليس هذا يكفي يا أميرة لاتهامهما. هل رأيتهما أو أي أحدٍ من الوصيفات يدخل الغرفة أو يخرج منها؟"

وبينما هم على هذا الحال من الشدّ والجذب والجدال، إذ دخلت عليهم وصيفة الأميرة زُمرد المقرّبة وقالت:

- "سيّدتي الأميرة زُمرد، لقد أخذت الحليّ الخاصة بك لتنظيفها وتلميعها، وها هي معي."

عند تلك اللحظة سكت الجميع، وبرّئت ساحة ليلي وعُلا من دون مجهود يُذكر، وأصبحت الأميرة زُمرد في موقف لا تُحسد عليه.

تكلّم الأمير عمر موجّهًا حديثه إلى ليلي:

- "نحن نعتذر إليكما عمّا حدث، تفضّلًا إلى عملكما."

قالت ليلي:

- "هكذا بتلك البساطة؟ نحن للتوّ كُنّا لصوصًا!"

نظر إليها الأمير عمر مطوّلًا، ثم قال:

- "انتهى الكلام، عودا إلى عملكما."

غادرت ليلى وعُلا المكان، وليلى تكاد تشتعل غضبًا ولا تستطيع
كتمه أكثر.

في غرفة الأميرة زُمرد تكلم الأمير عمر:

- "ما رأيك فيما حدث؟ ألم يكن جديرًا بك أن تتريثي قبل أن
توجهي تلك التهمة للفتاتين؟"

- "وما الذي حدث؟ الأمر ليس بهذا القدر من الأهمية. هاتان
فتاتان من عامّة الشعب، فلا تُهول الأمر يا عمر."

- "وهل ترين أنني أهول الأمر، وبأنه لا يستحقّ بالفعل؟
عليك أن تراجع نفسك الآن يا أميرة زُمرد. ليس مشروعًا أبدًا اتّهام
الناس بالباطل."

- "يا أمير عمر، أرى أنك محتدّ وغاضب من أجل هاتين
الفتاتين. ما الأمر؟ أهما أهمّ من زوجتك؟ كما أنك دافعت عنهما
وحاولت إيجاد مخرجٍ لهما بدلًا من أن تقف إلى صفّ زوجتك. هل
أعجبت بهما؟ أم ما سبب هذا التعاطف الكبير؟"

- "هل تهذين يا أميرة زُمرد؟ هل أصبح نُصرة الحقّ
وإنصاف الناس تهمةً الآن؟ لا بدّ أنه أصابك شيء اليوم."
تركها وانصرف غاضبًا ومتعجبًا من أفعالها.

كادت ليلى أن تُحطّم أثاث الغرفة التي تعمل بها هي وعُلا.
ظلتّ تجيء وتذهب في الغرفة، ثمّ قالت لعُلا:

- "هيا يا عُلا، سنذهب من هنا. سنترك هذا القصر ونغادر."
- "ماذا؟ ما الذي تقولينه يا ليلي؟ لقد انتهى الأمر، حمداً لله،
وتمّ الاعتذار لنا من الأمير عمر. لا داعي لذلك يا صديقتي."
- "لا يكفي هذا الاعتذار يا عُلا. إنها مسألة كرامة. لقد تمّت
إهانتنا."

حاولت عُلا إقناعها، وحرصت أن يخرج صوتها قوياً ثابتاً على
غير العادة، فقالت:

- "ليلي حبيبتي، نحن بحاجة إلى النقود. بالله عليك، تجاوزي
الأمر ودعينا نُبأشر العمل. عائلتك وأنا بحاجة إلى المال. وطالما أنّ
الأمير عمر اعتذر منا، فلا بأس. إنه وليّ العهد يا ليلي، أي الملك
القادم."

نظرت ليلي إلى عُلا ولم تتحدّث. لم تجد من الكلمات ما يناسب
الموقف، فأثرت السكوت ورضخت للأمر.

بعد عدّة أيام، كانت أثواب الأميرة جاهزة لتقيّمها بنفسها
وتحكم على عمل ليلي. أبدعت ليلي كما لم تُبدع من قبل: ثوبٌ من
اللون الأزرق الفاتح مُحلّى بتطريزٍ من اللؤلؤ باللون الفضيّ، تراصّت
حبّاته بعنايةٍ بالغة في منظرٍ جميل. ارتدت الأميرة الثوب ولم
تستطع كتم إعجابها به. وثوبٌ آخر من اللون الأخضر مُحلّى بلؤلؤٍ

أسود، جميعها ألوان ملكيَّة تليق بلقاءات الأميرة، وجميعها مُصمَّمة كأروع ما يكون.

التفتت الأميرة زُمرد إلى ليلي قائلةً ببهجة:

- "أنتِ ماهرة حقًّا يا ليلي. صدقوا مَنْ أخبروني عنكِ. ستعملين هنا بشكلٍ دائم، وستنالين من الأجر ما تشائين أنتِ ومساعدتك. أرجو ألا تكوني ما زلتِ غاضبةً بسبب ما حدث." ابتسمت ليلي ابتسامةً باردة وقالت:

- "أشكركِ سيدتي، لا عليكِ، فالأمر انتهى."

ثم سُمعت عدَّة طرقات على الباب، وكان الزائر الأمير عمر. التفتت إليه الأميرة زُمرد قائلةً وهي تستعرض الثوب أمامه:

- "انظر يا أمير إلى جمال الثوب وأناقتة. أليس لائقًا بملكة المستقبل، زوجة الملك المستقبل، يا عزيزي؟"

قال الأمير عمر، وعلامات الإعجاب والدهشة بادية عليه:

- "أجل، إنَّه رائع حقًّا. سلِّمت يداكما يا فتيات. إنَّه عملٌ رائع حقًّا يستحقُّ التقدير."

قالت الأميرة زُمرد:

- "أأنت تقول هذا في حقِّ الثوب يا عمر؟ وماذا عمَّن ترتدي الثوب؟"

فأجاب الأمير عمر:

- "أجل يا عزيزتي، أنتِ رائعة على الدوام، ولكن زادكِ الثوب روعةً وأناقة. مبارك عليكِ يا أميرة."

كانت ليلى تستمع إلى الحوار وقد بدا عليها عدم الاهتمام. استأذن الأمير عمر للانصراف، وكذلك ليلى وعُلا انصرفتا إلى مكان عملهما لاستكمال ما تبقى.

توالت الأيام على هذا النحو: ليلى تعمل في قصر الملك نهارًا وتذهب إلى بيتها ليلاً. ترى الفارق بين الليل والنهار واضحًا وضوح الشمس في كبد السماء؛ نهارًا ترى مظاهر الغنى والترف والرفاهية في القصر، وليلاً، وفي طريقها للعودة، ترى مظاهر الفقر وقلة الحيلة والحرمان.

تذكّرت إحدى المرّات عندما كانت في طريقها إلى البيت، إذ وجدت أطفالاً صغاراً يبكون، وأمهم جالسة تفتش الأرض صامتة، نظراتها زائغة وكأنّها لا تستمع إلى صراخ الأطفال من حولها. اقتربت منها ليلى وسألتهما إن كانت تريد شيئاً، وعند هذا الحدّ انفجرت المرأة في البكاء.

وعندما هدأت، أخبرت ليلى بأنّ أطفالها جائعون، وهي لا تدري من أين تأتي لهم بالطعام. زوجها طريح الفراش منذ عدّة أيام، وهو عاملٌ يعمل بقوت يومه، وهي لا تدري ماذا تفعل لتوفّر له الدواء المناسب ولأولادها الطعام.

أخبرتها ليلي ألا تقلق، وذهبت معها وابتاعت لها ما يكفيها ويكفي أبناءها ليومين من الطعام. وأخبرتها أنها تعرف بعض الأمور عن العلاج بالأعشاب. قالت لها المرأة إنّ زوجها يشتكي من الحمى والسعال، فأعطتها ليلي أعشاباً تساعد على الشفاء من السعال والحمى، وشرحت لها كيف تقوم بعمل كمادات لخفض درجة حرارة جسده.

شكرتها المرأة شكراً كثيراً، فقالت لها ليلي إن لا داعي لذلك، فهي لديها أبناء مثل أبنائها، ولم تفعل إلا ما وجب عليها فعله.

تذكّرت ليلي أبناء أخيها بعدما تركت السيدة وانصرفت، ودعت الله كثيراً في نفسها أن يمنحها القوة والعون لتربيتهم وإكمال رسالتها معهم، وألا ترى فيهم شراً أبداً في يومٍ من الأيام.

ترى ليلي الفارق كل يوم، وكل ساعة، وكل لحظة. ترى أصناف الطعام في القصر، وكيف أنّ الناس في الخارج لا يعرفون شيئاً عن تلك الأطعمة. كانت ليلي تأكل في القصر ما يسد رمقها فقط إن قرصها الجوع بشكل لا يُقاوم، أمّا عدا ذلك فكانت تمتنع عن أكل شيءٍ حتى تذهب إلى بيتها.

أخبرتها عُلّا بأن عليها أن تأكل حتى تستطيع العمل جيّداً وتحافظ على صحّتها، كما أنّ الطعام لا يُقاوم. لكن ليلي كانت تشعر بغصّة في حلقها كلّما وضعت شيئاً من الطعام في جوفها. أهو مقتل أخيها السبب؟ أم لعلمها بأن كلّ هذا الترف والرفاهية يأتي من استنزاف الفقراء في الخارج، إمّا بحصة بيت المال، أو بغلاء

الأسعار، أو بالإهمال والتهميش للناس ومشاكلهم وأمراضهم و فقرهم؟

هل هكذا تُحكّم الدول؟ هل على هذا يُنصبّ الملك على عرشه؟
ألا تَبَّأَ لِحُكْمِ كهذا، وتَبَّأَ لشعبٍ رضي لنفسه الهوان. نعم، فالناس في
المدينة رضوا بذلك وفُطِرُوا عليه؛ فُطِرُوا على السمع والطاعة حتى في
الخطأ والظلم والعصيان. ونسوا قول الله تعالى: "وأطيعوا الله
وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم"، حيث جعل الله طاعة أولي الأمر
تابعاً لطاعة الله ورسوله، وليست طاعةً مطلقة كما يتوهّمون. فإن
حكم الولي بما أمر الله وجبت طاعته، وإلا فَلِمَ الطاعة لوليِّ هو
نفسه يعصي الله في شعبه؟ يا ليت الناس تستفيق.

كانت ليلى تعمل في القصر ذات يوم، وعندما انتهى عملها لذلك
اليوم، وهي منصرفه إلى الخارج، صادفت في طريقها الأمير عمر
زاهباً إلى إسطنبول الخيول. لم تكن عُلا معها في ذلك اليوم. نظرت
إليه وخفضت رأسها ومشت في طريقها.

تكلّم هو أولاً:

- "انتظري يا فتاة."

وقفت مكانها ونظرت إليه ولم تتحدّث.

- "لماذا لا تجيبين؟ ألم يُخبروكِ أنّه عندما يُحدّثنا أحدٌ يجب

علينا أن نجيبه؟"

قالت ليلي:

- "يا سيدي، أنت قلت: انتظري، فانتظرت."

نظر الأمير إليها بتعجب. تلك الفتاة، أمتكبرة هي أم عنيدة أم ماذا؟ أي فتاة أخرى مكانها الآن لكانت ترتعد خوفاً، أو تطير فرحاً لأن ولي العهد الأمير عمر يحدثها شخصياً.

قال الأمير:

- "نعم، رغبت أن أعبر لك عن إعجابي بعملك، لعل ذلك يحو أي أثر في نفسك قد يكون سببه كلامي في المرة السابقة. أنا لم أكن أسخر منك أو من رفيقتك، ولكن تعجبت فقط، لأنني أعلم مدى تعنت زوجتي الأميرة زُمرد فيما يخصها أو فيما ترغب به. كما وددت أن أكرّر اعتذاري عن أمر السرقة ذاك. هل ستكتفين بذلك أم ستخذليني؟ أرى أنك عنيدة بما يكفي لتجعلي ولي العهد يندم على أنه بادر بحسن النية."

قالها وابتسم لها. ظلت محدقةً فيه بضع ثوان: هل يعتذر حقاً؟ وهل يبتسم لها حقاً بهذه البساطة؟ أليس هذا ابن الملك؟ إذا لم هو بهذه التلقائية والبساطة والألفة؟ يبدو أن كلام علا عنه صحيح.

بادلته ليلي الابتسامة وقالت:

- "بل يكفي يا سيدي، ولن تندم هذه المرة."

- "حسناً، إن أردت شيئاً يا... ما اسمك بالمناسبة؟"

- "ليلي يا سيدي."
- "نعم، إذًا إن أردت شيئًا يا ليلي فلا تترددي وأخبريني."
- "شكرًا لك سيدي على سعة صدرك."

تركها وانصرف. ودّت لو تخبره بأنّها تريد أن تعرف: لِمَ قتلتم أباها؟ ودّت لو تخبره كلامًا كثيرًا، لكنّها آثرت السكوت، آثرت السلامة لأجل أن تخرج من هنا على قدميها لتكمل رعاية أبناء أخيها. فالأمير عمر، وإن بدا عليه الألفة والرحمة، يظلّ ابن الملك ووليّ العهد الذي لن يتهاون مع مَنْ يتناول بالكلام، وإن كان مظلومًا أو صاحب حق. هكذا هم الحكّام والملوك كما عاهدتهم وعاهدهم الجميع في المدينة.

انصرفت ليلي لتذهب إلى بيتها. كان الوقت عصرًا. اشتاقت إلى البحر، اشتاقت إلى رفيقها منذ الصغر. تذكّرت لعبها ومرحها مع أخيها نادر على شاطئ البحر في صغرهما. تذكّرت أباها وتدليله لها هي بالأخص. كانت قريبةً من أبيها، كانت مدلّته. كم صحبتها معه إلى هذا الشاطئ، وكم ركض خلفها وهي تركض بسعادةٍ بالغةٍ مختطفةً منه بعض أدوات الصيد.

كلّ يومٍ كان يذهب إلى البحر، يُلقِي الشباك ويسأل الله الرزق، وكان الله يستجيب. تعود إليه الشباك محمّلةً بأسمكٍ من مختلف الأحجام والأشكال. لكن ليلي لم تُحبّ السمك طعامًا يومًا، فكان أبوها يبيع الأسماك ويأتيها بطعامٍ آخر من السوق، في حين يأكل باقي العائلة السمك لأنّهم يحبّونه كثيرًا. وكان ذلك يُغضب أمّها

كثيرًا، إذ كانت تريدها أن تأكل السمك لأتّه صحّي، ولكي تكون مثل أفراد العائلة. وكانت تقول لزوجها: "لا تُفسد البنت بدلالك الزائد لها." فيردّ: "دعي حُبّة قلبي تفعل ما تشاء، طالما ليس عيبًا أو حرامًا. ابنتي على حُلق وتستحقّ بعض الدلال من أبيها الذي يحبّها كثيرًا."

كانت ليلي تضحك بسعادة وتذهب إليه وتحتضنه، مما يُغيظ أمّها أكثر. مات أبوها عندما كانت في السابعة عشرة من عمرها. مرض، وزاد عليه المرض، ومات بسلام كما كان يحيا بسلام. بكت ليلي كثيرًا ومَرّت بفترةٍ صعبةٍ للغاية. هي أكثر مَنْ تأدّى من وفاة أبيها. احتضنتها أمّها كثيرًا وطمأنتها بأنّها هنا من أجلها، وكذلك أخوها نادر.

كان نادر يكبرها بسبع سنوات. تحمّل المسؤولية بعد أبيه، وعمل عمله. ركب البحر وأخرج الأسماك كما كان يفعل أبوه، وكان أبوه قد أعدّه مسبقًا لهذا، فما كان يتركه في رحلات صيده. مرّت السنون وتزوَّج نادر وأنجب ولدين.

تقدّم الخطّاب إلى ليلي، وأراد أخوها تزويجها، لكنّها كانت ترفض. كانت تخشى الزواج ولم تشعر بالراحة مع أحدٍ منهم. ولم يستطع أخوها تزويجها دون رغبتها. مرّت الأيام على هذا حتى حدث ما حدث، وقُتل نادر غدراً على يد جنود الملك. عندها تغيّر كلّ شيء.

ليلى المدللة لم تُعد مدللة. أصبحت مسؤولةً عن عائلةٍ كاملة: ثلاثة أطفال، وأمّ مريضة، وزوجةٍ أخٍ تساعد في تربية الأبناء ورعاية الأمّ وإدارة شؤون المنزل.

قادت أقدامها إلى البحر تصطحبها الذكريات. جلست ونظرت إلى الأمام دون أن يرمش لها جفن.

ذهب الأمير عمر إلى الإسطبل واصطحب جواده، وذهب في جولته الخاصّة. كان يفعل ذلك دائماً من دون حراسة أو قيود. يذهب إلى السوق ليتفقد الناس وأحوالهم، ويمشي في طُرقات المدينة يتحدّث إلى البعض ويطلّع منهم على شكواهم. وبعدها يذهب إلى جلسته الخاصّة على شاطئ البحر، جلسته التي تُصفي ذهنه وتُزيل همومه وكربه.

كلّما تحدّث إلى زوجته زُمرد شعر أنّ به هموم الدنيا، وكأنّه يحمل على أكتافه أثقالاً من حديد. فهي ما تكاد تراه حتى تُحدّثه عن الحكم والولاية التي على وشك أن تتسرّب من بين يديه كحبات الرمل، وعن الوزير صفوان وأفكاره الشيطانيّة. أهي لا تستطيع الحديث في أمور أخرى غير ذلك؟

هو يشتاقي إلى حديثٍ عن الأبناء، إلى حديثٍ يحمل حُباً ووداً في طيّاته. يريد أن يشعر بأنّه رجلٌ تحبّه امرأته، لا أنّه وليّ عهد فقط، وزوجته تسعى لأن تصبح الملكة ولا تهتمّ بشيءٍ غير ذلك. هو يشتاقي

إلى حديثٍ من القلب، إلى زوجةٍ على هيئة صديقة، تفهمه، تحتويه، وتُخفّف عنه، لا أن تُحمّله ما لا يُطيق.

انتهى من جولته سريعاً في ذلك اليوم. لا جديد. لم يُرد البقاء أكثر. أحوال الناس لا ولن تتغيّر طالما أنّ أباه يراها بعيون صفوان. فقرّ وضيقٌ وهمٌ في كلّ شبرٍ من المدينة. ورغم حفاوة الناس به واستبشارهم بزيارته، لم يستطع المكوث طويلاً. شعر أنّه عاجز عن المساعدة. شعر بالخيانة. هو يخونهم؛ يُطمئنهم بزياراته ويُعطيهم الأمل، ثم يذهب ولا جديد يحدث.

إن استطاع أن يُغيّر من حال البعض فهذا لا يكفيه. هو يريد تغييراً لحال المدينة كلّها: تغييراً لتعليم الأبناء الصغار، تغييراً لمستوى معيشتهم، تغييراً لصحتهم وتداويهم. يريد أن يبرأ إلى الله يوم يلقاه بأنّه فعل ما استطاع. ولكن طالما أنّ أباه يسمع ويرى بعينٍ وأذنٍ صفوان، فلا فائدة. وهو، مهما كان، لا يستطيع أن يتجاوز أباه في أمور الدولة، فهو الملك، وهو أبوه على كلّ حال.

غادر الجمع وسار بعيداً إلى البحر، حيث يحمل عنه البحر بعضاً من همومه. ظلّ راكباً على ظهر حصانه، ثم ترجّل وسار بمحاذاة الشاطئ حيث تأخذه أقدامه. هذه المرّة مشى كثيراً، وكانت الشمس قد غابت وأظلمت السماء. سرح بأفكاره وظلّ يمشي حتى لاقاه؛ تمشي في الاتجاه المعاكس مقابلةً له، تحتّ الخطى مسرعةً نحو المدينة عائدةً إلى بيتها.

سرقها الوقت وهي تجلس بين يدي البحر تستعيد الذكريات. رأته فوقفت للحظات ثم واصلت السير. فكر وقال: ما الذي أتى بها هنا في هذا الوقت، ولا يوجد أحد على الشاطئ الآن؟ ورغم أنه لم يكن قد رآها غير ثلاث أو أربع مرّات في القصر، إلا أنه عرفها؛ فهي تمتلك شكلاً وشخصيةً لافتة تجعل من يراها يتذكّرها بسهولة، ومواقفها معه كانت كافيةً لجعله يتذكّرها.

استوقفها قبل أن تبتعد كثيرًا ونادى:

- "انتظري، أهذه أنتِ ليلي؟"

انتبهت وتوقّفت عن السير وواجهته قائلة:

- "نعم، إنّها أنا."

- "ألم نلتقِ عصر هذا اليوم في القصر؟ ظننتكِ زاهبةً إلى بيتكِ بعد يوم عملٍ طويل. أين كنتِ في هذا الوقت يا ليلي؟ واعذريني، فهذا ليس تطفلاً عليكِ، ولكن فقط استغربت الأمر."

- "لا شيء يا مولاي الأمير، فقط كنتُ أتنزّه قليلاً على شاطئ البحر، وأخذني الوقت ولم أنتبه إلا عندما لاحظتُ الظلام من حولي."

- "هل بيتكِ قريب من هنا؟"

- "أجل، إنّه على مقربةٍ من البحر ولكن في الاتجاه الآخر. ولكن أسمح لي يا مولاي أن أسألكَ نفس السؤال؟ ما الذي أتى بوليّ العهد إلى هذا المكان في هذا الوقت؟"

كان من الممكن أن يختصر في إجابته معها ويمضي لشأنه،
ولكن لسببٍ لا يعلمه أراد إطالة الحديث معها، فقال:

- "ليس من حقك استجواب وليّ العهد، ولكن لا بأس،
سأجيبك. أنا أيضاً أردتُ التنزّه على شاطئ البحر قليلاً. ولكن هل
هذه عادتكِ يا ليلي؟"

- "ليست عادةً بل حياة. حياتي هنا بين هذا الشاطئ
وأواجه ورماله. هذه حياتي وسنوات عمري هنا يا أمير، وليست
عادة. ولكن اسمح لي: هل يتنزّه الأمراء عادةً على شواطئ البحار
مثلنا، مثل عامّة الناس الفقراء الذين لا يجدون متنفساً آخر إلا هذا
البحر يحمل عنهم همومهم؟"

استغرب لفظ "يا أمير" منها. لا يعرف إن كانت تقصد
السخرية، أم الضيق من حديثه معها، أم ماذا. ما بها هذه الفتاة؟
قويّة، لا تخشى وليّ العهد، جريئة وجميلة أيضاً. عيناها واسعة،
وشعرها يتدلّى عنوةً عنها من تحت حجابها. في عينيها وهجٌ خاص
وبريقٌ صافٍ يميّزها، وأهدابٌ طويلة، وثغرٌ مثل اللؤلؤ المحفوظ في
جوف البحر.

صمت قليلاً ثم قال:

- "وهل تظنّين أنّ الأمراء بلا هموم؟ أم هل تظنّين أنّ البحر
ملكٌ لأحدٍ دون الآخر؟ أظنّ أنّ الله خلق هذا البحر للجميع: للأمراء،
وللفقراء، وللفتيات مثلكِ يا ليلي."

قالها وابتسم لها، فقالت:

- "قد تكون محققاً يا أمير، ولكن هلاً تنازلتَ عن حَقِّك في هذا البحر لمن لا يوجد لهم مكانٌ آخر في هذه الدنيا؟ فأنت على كلِّ حال لديك قصرٌ جميل يمكنك التَنزُّه في أرجائه الكثيرة المتنوعة بالحدائق والأشجار والزهور."

"يا ليلي، أنا أستشعر في نبرة حديثك شيئاً من الحقد والسخرية، ولا أدري لذلك سبباً. ماذا تظنَّين بي؟ ليس هناك أحد يجرؤ على أن يُحدِّثني هكذا، ومع ذلك أنا صابرٌ عليكِ حتى أفهم ما الذي يدفعك للحديث بهذا الشكل. يبدو أنكِ تُسيئين الظنَّ بي كثيراً. قد تظنَّين أنه يُعجبني حال الناس، وأني لا أهتمُّ بشكواهم وهمومهم. ولكن على أيِّ أساس كَوْنتِ رأيكِ هذا، إن كان كلامي صحيحاً؟"

- "أسفة، لم أقصد. فقط أرى حال الناس في الخارج، وحال الأمراء والوزراء في القصور، فأشعر بالغيظ. أنا لا أقصدك أنت بالذات يا مولاي، لكن أخي قُتل على يد أحد جنودكم، فماذا تنتظر منِّي أن أكون؟ وماذا يجب عليّ أن أشعر تجاهكم؟"

- "تجاهنا؟ لماذا تُصنِّفيني؟ أنا لا أنتمي لأحد، ولستُ تابعاً لأحد. أنا الأمير عمر، وليُّ العهد، ولستُ راضياً عن أحوال المدينة. كفى إلقاءً للتهم جزافاً."

كان يتكلَّم بغضبٍ ظاهر، مما دفع ليلي إلى الصمت. ثم بعد برهة قالت:

- "عذرًا يا مولاي، هل يمكنني الانصراف الآن؟ أخشى أن الوقت قد تأخر كثيرًا."

فاجأها قائلاً:

- "كيف قُتل أخاك؟"

صمتت تسترجع الذكرى، ثم قالت بثباتٍ محفوفٍ بغضبٍ حاولت ألا تُظهره، لكنه أبى إلا أن يخرج:

- "كان في السوق يبيع الأسماك كالعادة، كي يأتي لعائلته بمتاعهم واحتياجاتهم. فجاء أحد الجنود وتشاجر معه، وانتهى الأمر بقتل أخي. الجندي لم يجد لغضبه منفذًا غير القتل. الجندي علم أنه لو قتل أخي فلن يتم القصاص منه. الجندي لم يخف عقابًا، فسفك الدم الذي حرّمه الله، واستباحه أمام أعين الناس ضحى. هكذا قُتل أخي، هكذا انتهت حياته، هكذا تيمم أبناؤه، وقاتله حرٌّ طليق إلى يومنا هذا. هل علمت الآن كيف قُتل أخي؟"

سكت ونظر إليها بعمق، ثم قال:

- "رحمه الله. لو كنتُ على علمٍ بالأمر يا ليلي، صدّقيني، لكان هذا الجندي أخذ جزاءه وعقابه الذي يستحق. إنّ حرمة الدماء ليس فيها تهاون. ولكنّه الوزير صفوان، يكتّم عني أخبار الناس وأخبار الدولة، حتى أنّه يعمل على إفساد علاقتي بأبي، ويحاول إيصال فكرة أنني لا أصلح للحكم. هذا اللعين هو سبب كلّ بلاءٍ في المدينة."

لا يدري لِمَ قال لها هذا الكلام. هذا الكلام لا يجب أن يُقال هكذا لعامة الشعب، فهذا يمسّ صورته أمام الناس. لكن ربّما الليل والبحر وهمومه التي أثقلته، وربّما أراد الحديث ولو كان مع ليلي التي لم يلقها إلا مرّات قليلة. أو ربّما أراد أن يُثبت لها عدم تورّطه في مقتل أخيها ولا حتى علمه بالأمر. هو لا يدري، هو فقط يستجيب لرغبةٍ بداخله للحديث معها.

قالت ليلي مستغربةً بعد صمت:

- "ولِمَ لا يتمّ عزله طالما هو سبب الخراب في المدينة؟ نعم، كلّنا نعلم ذلك، لكن كُنّا نظنّ أنّه يفعل ذلك برضاك وبرضى الملك. أمّا الآن فأنت تقول إنك لا ترضى بشيء؟"

- "للأسف، أبي يسمع له كثيرًا. أبي أصبح يثق به أكثر منّي. أخشى على أبي منه، وأخشى من أفعاله ونيّاته التي يسعى لها في المستقبل القريب."

كان صوته يشوبه حزنٌ وعجز، وكان سارحًا بنظراته ناحية البحر. شعرت بتعاطفٍ معه، شعرت أنّه ضحيّة حاشية فاسدة وملكٍ مُغيّب. شعرت أنّه يسير معها في نفس الطريق، باحثًا عن حقّه وحقّ الناس مثلها. إذًا، هما يلتقيان الآن في نقطةٍ واحدة، وهو الآن قريبٌ جدًّا بشكلٍ يُنذر بالخطر.

أفاقت ليلي من شرودها وأرادت أن تنصرف، فقالت:

- "لعلّ الله يُدبّر لها مخرجًا يا مولاي. لا تقلق، لن يحدث إلّا ما أَرادَه الله، ولعلّ الحقّ في النهاية هو من سيعلو ويسود."

لا يدري لِمَ طمأنته كلماتها البسيطة. نظر إليها طويلًا نظرة امتنان. لا يدري لِمَ يشعر الآن بأنّ همومه قد تلاشت وتبعثرت مع أمواج البحر. ظلّ محدّدًا بها: كيف تحوّلت من ناقمةٍ معادية إلى رفيقةٍ رقيقةٍ إلى هذا الحدّ في وقتٍ قصيرٍ؟ طال صمته وطالت نظراته.

شعرت بأنّه وجب عليها الانصراف الآن. أرادت أن تقول له بأن يسمح لها بالانصراف، لكن ربّما الكلمات الآن لا محلّ لها من الإعراب. رغماً عنها ظلّت ناظرةً إليه سارحةً في ملامحه الرجوليّة الوسيمة. لا صوت يُسمع غير صوت أمواج البحر الثائرة. أفاقت وأطرقت إلى الأرض قليلاً، ثم انصرفت دون أن تتكلّم كلمةً واحدة، وهو لم يحاول إيقافها.

الفصل الرابع مكيدة

في قصر الوزير صفوان، جلس على الأريكة وجلس محدّثه ابن عمّه وذراعه الأيمن منصور، قائد الحرس الملكي. قال منصور لصفوان:

- "ماذا أنت فاعل يا صفوان؟ ولاية العهد لا تزال للأمير عمر. هل ستنتظر ذلك الملك الكهل يموت ويولّي ابنه بعده، وتذهب أنت مع الريح؟ أعلم أنّ لديك خطة، فماذا ستفعل؟"
فأجابه صفوان:

- "إلى الآن ليس بعد يا منصور. كلّ ما استطعت فعله هو إقناع الملك بأنّ الأمير عمر غير مؤهّل للحكم بعد، وأنّه صغير السنّ وطائش ويتصرّف بمشاعره، وهذا لا يصلح للجلوس على عرش المملكة. أنت تبعث خلفه بالرجال كلّ فترة يراقبونه كما اتفقنا. أنا

أنتظر منه خطأً جسيماً أو ثغرة أستطيع إيقاعه في فخّ منها. هذا ما سيجعل الملك يثنيه عن الولاية بشكل رسمي ويولّيني مكانه." -
"ولمَ تنتظر كلّ ذلك؟ لمَ لا تتخلّص من ذلك الملك وينتهي الأمر؟"

- "هل أنت ذكي بما يكفي؟ كيف أتخلّص منه وهو إن مات الآن سيتولّى ابنه عمر رغماً عنّي، بحكم أنّ الملك لم ينفِ ولايته بعد؟ بقاء ذلك الملك في مصلحتي إلى حين توقيع صكّ رسمي بولايتي بدلاً من ابنه عمر. الأمر صعب يا منصور، فهذا ابنه وهو الوارث الوحيد له. ليس الأمر بهذه السهولة. لا بدّ للأمير عمر من خطأ فادح أو كبوة كبيرة تجعله في عين الملك والناس طائشاً أهوج لا يصلح لحكم دولة كبيرة كدولتنا. المشكلة أنّه ليس له في النساء، ولا في الخمر، ولا في اللهو. كلّ جولاته تكون في الأسواق وفي زيارة الناس ثم العودة إلى القصر. ليس لديه ثغرة نخترق دفاعاته منها. الأمر صعب حقاً."

- "ولمَ لا تتخلّص من الأمير عمر نفسه؟"

- "ما هذا الذكاء يا رجل؟ أتريد أن توجّه كلّ أصابع الاتهام إليّ وحدي وتجعل الملك ينفيني من على وجه الأرض كلّها؟ هل تظنّ أنّ الخلاف بيني وبين الأمير عمر غير واضح ومعلن للجميع؟ أنت أحمق يا منصور. كلّ ما أريده منك أن تعمل على مراقبة الأمير عمر كما اتفقنا، وأن تُبلغني كلّما حدث جديد."

- "كما ترى يا صفوان، أنا تحت أمرك."

- "أحسنت يا منصور."

في بيت ليلي جلست أمها وزوجة أخيها الراحل تتحدّثان، حتى إذا ما دخلت ليلي قطعتا حديثهما. أَلقت ليلي السلام ثم جلست بجوارهما وقالت:

- "ما بكما تنظران إليّ هكذا؟ هل قطعتُ حديثكما أم ماذا؟"
تحدّثت أمها قائلة:

- "ليلي حبيبتي، ليس الأمر بخافٍ عنك. تقدّم لكِ خاطب، وأنا أرى أنّه رائع. ألم يحن الوقت لأفرح بابنتي وحبّة قلبي بعد؟"
ذهلت ليلي للحظة، ثم تحدّثت بعصبية:

- "أمي، ألم ننته من هذا الحديث من قبل؟ أخبرتكِ أنّي لن أتزوِّج. لن أرحل من هذا البيت أبداً. لن أترك أبناء أخي أبداً أبداً. لِمَ نتحدّث في أمرٍ انتهى وانتهى مجال النقاش فيه؟"
تحدّثت زوجة أخيها قائلة:

- "ليلي حبيبتي وأختي، كلّنا نريد أن نراكِ مع رجلٍ يرعاكِ ويهتمّ لأمركِ. كفاكِ اهتماماً بنا وبكلّ من حولكِ. الآن يجب أن تهتمّي بنفسكِ قليلاً. لا تقلقي بشأن أبناء أخيكِ، فأنا أمهمّ وسأذهب للعمل للإنفاق عليهم. أنا أولى بهم. هل ستُضيعين عمركِ لأجلنا؟ لا أريد أن أتحمّل ذنبكِ يا ليلي. ألا تريدين أن تُصبحي أمّاً أنتِ أيضاً؟ والزواج لن يمنعكِ من الاهتمام بأمرنا. يمكنكِ العمل في

منزلك ومواصلة رعايتك لأبناء أخيك. خاصة أنّ هذا الخاطب ابن الجيران، يعني أنّك ستكونين قريبةً منّا. لن نبتعد عن بعضنا كثيرًا، فقط ستنامين في مكان قريبٍ منّا. فكّرِي يا حبيبتي، إنّ قطار العمر يمضي، ولا نريد أن نراكٍ وحيدةً يومًا ما من دون أطفال وزوجٍ يحبك.

نظرت إليها ليلي طويلًا. هي صادقة، تحبّها كأختها تمامًا وتخشى عليها. لكن لا مجال للحديث في هذا الأمر بالنسبة ليلي. إنّ عهدُ قطعته على نفسها ولن ترجع فيه أبدًا. نظرت ليلي إليها وإلى أمّها قائلة:

- "لن أتزوج. لن أخلف عهدي لأخي. سأبقى هنا حتى أموت هنا، ولن أرحل إلى أيّ مكان. لا أريد أطفالًا، فلديّ ثلاثة منهم. أمّي، لا أريدك أن تحزني لأجلي. صدّقيني، أنا أقضي كلّ لحظةٍ من عمري في سعادةٍ بالغة وأنا أراقب أبناء أخي وسارة الصغيرة يكبرون أمام عينيّ كلّ يوم. أمّي، أنا سعيدةٌ بحياتي هذه، أرجوك لا تقلقي بشأن."

تركتها ليلي وانصرفت إلى غرفتها، وعينا أمّها لا تفارقان الباب المغلق بعدها بألمٍ وخوفٍ على مستقبل ابنتها.

دخلت ليلي غرفتها شاردة، وظلّت تفكّر في كلام أمّها وزوجة أخيها. هي لن تستسلم أبدًا. تخشى إن تزوّجت أن تنشغل بحياتها وتتسى أبناء أخيها. تخشى عليهم من الفقر والحاجة. لن تترك أبناء أخيها وحدهم مهما كان الثمن. ذهبت إلى النافذة المطلة على

الشاطئ وسرحت بأفكارها. لم ترَ أمامها البحر كالعادة، بل رأت وجه الأمير عمر ناظرًا إليها بِاسْمًا، كالقمر البعيد عنها، اللامع في السماء.

في القصر الملكي عاد الأمير عمر إلى جناحه، ودخل غرفة نومه ليجد زوجته الأميرة زُمرد أمامه. ألقى التحية وجلس يستريح على الأريكة. جلست بجواره وقالت باسمه:

- "أين كنتَ يا زوجي؟"

- "كنتُ أتجول في المدينة قليلًا."

- "آه، لا بأس. متى ستكفّ عن تجوّلك هذا وتلتفت إلى الأمور المهمة التي تنتظرُك؟"

نظر إليها بضيق وقال:

- "زوجتي العزيزة، لا أريد الحديث في تلك الأمور الآن. هلاًّ أمرتِ بإحضار العشاء من فضلكِ؟ أريد أن أكل وأستريح قليلًا، فأنا متعب."

- "يا عزيزي، أنت تُهدر طاقاتك في تلك الجولات، ثم تعود وتقول إنك متعب. يا عمر، الولاية ستطير من بين يديك. أتنظنّ أنّ صفوان غافل؟ أخشى أن يكون يُدبّر لنا مكيدةً أو فخًا يقضي علينا به. متى ستهتمّ بمستقبلنا يا عمر؟"

- " غداً، أعدك غداً سأهتّم يا عزيزتي. أما الآن، فأنا سأنام. إلى اللقاء. "

قالها وانصرف إلى الغرفة المجاورة لينام هناك وحيداً، بعيداً عن حديثها الذي لا ينقطع عن الولاية والحكم وصفوان. تزيد همومه، وهو لم يعد قادراً على البقاء معها في غرفةٍ واحدة وقتاً كبيراً. تناول طعامه سريعاً بلا شهية، واستلقى على السرير الوثير. حاول النوم فلم يستطع. تذكّرها، تذكّر ليلي ووجهها الناعم. لم يتذكّرها الآن؟ هو يريد النوم، لا يريد تذكّر جمالها ورقّتها التي هي برّقة الورود، ولا يريد تذكّر ثورتها التي هي كثورة أمواج البحر حين تغضب. أطلت صورتها أمام عينيه مباشرةً تمنعه النوم فترةً، حتى غلبه النعاس.

مرّت أيّام ولم يحدث جديد. حال المدينة كما هو، وحال ليلي كما هو: تذهب للعمل نهاراً في القصر، وليلاً هي بين أسرتها وأبناء أخيها، تُداعبهم وتلهو معهم، وتتسامر مع أمّها وزوجة أخيها. وضعهم المادّي تحسّن بعض الشيء بسبب عمل ليلي في القصر، وعُلا كذلك رضي عنها عمّها لأنّها أصبحت تعطيه من النقود أكثر من ذي قبل. استقرّت أوضاع الفتاتين كثيراً، ولكن هل هذا كلّ شيء؟ هل ستنسى ليلي حقّ أخيها وتنعم ببعض الأمان وراحة البال قليلاً؟ هل ستنسى الفتاتان حقّهما في الزواج وتكوين أسرة مثل باقي فتيات المدينة؟ هل لأحدٍ على قلبه سلطان؟!

ذات مساء، وأثناء انصراف ليلى من القصر، لاقت في طريقها الأمير عمر. كانت غُلا قد انصرفت مبكراً بعض الشيء، ورفضت ليلى الانصراف حتى تُنهي ما بيدها من عمل، فتأخّرت ولم تلاحظ الظلام من حولها. ألقى التحيّة باسمًا:

- "أهلاً يا ليلى، كيف حالك؟"

- "أهلاً بك يا مولاي، بخيرٍ حالٍ والحمد لله."

- "هل انتهيت من عملك اليوم؟ أرى أنك تأخّرت قليلاً."

- "أجل، لقد انهمكتُ في العمل فلم ألحظ الظلام. مضى الوقت سريعاً."

- "أنتِ تحبّين عملك هذا كثيرًا، أليس كذلك؟"

- "نعم يا مولاي. لقد ورثته عن جدّتي لأبي، رحمها الله. هي كانت تحبّه كذلك. عندما كانت تصنع ملابس لجيرانها كانت تشعر بسعادةٍ بالغة وهي تراهم يرتدون الثياب من صنع يديها، وكانت تفخر بذلك. لذلك أنا ورثتُ منها شغفها وحبّها لتلك المهنة. وكم أنا محظوظة بذلك، أن أعمل بشيءٍ أحبّه وأتقنه، وليس مجرد عملٍ يجلب لي النقود فقط."

- "رائع يا ليلى. عملك رائع، وأنتِ كذلك."

نظرت إليه ولم تتحدّث. لم تدرِ بما تجيب.

تكلّم الأمير عمر:

- " هل ذهبتِ إلى الشاطئِ مرّةً أخرى؟ "

تفاجأت ليلي بالسؤال. هل يحقّ له أن يسأل عن أمرٍ يخصّها هي؟ لكنها أجابت على أية حال:

- " نعم، ذهبتُ مرّتين بعد ذلك. "

- " هل تجدين هناك شيئاً لا يوجد في مكانٍ آخر سوى البحر؟ "

- " نعم، أجد طفولتي وصباي وذكرياتِي. أجد أبي وأخي. أجد الأيام التي كنتُ أضحك فيها بسعادة، وأركض ببلاهة وأنا لا أحمل همّاً للندى. أجد رفيقي منذ الصغر: البحر وأمواجه وشاطئه ورماله. أجد هناك الكثير يا مولاي، ممّا لا يوجد في مكانٍ آخر من العالم. "

- " هل تعلمين أنّني أيضاً أحبّ البحر كثيراً؟ فكلّما ضاق صدري أذهب إليه محمّلاً بالهموم، فأعود وكأنّما حملها عني. يبدو أنّنا مشتركان في هذا الأمر يا ليلي. "

ابتسم لها وراح يُدقّق النظر في ملامحها من خلال الضوء الخافت الذي يُحاوطهما. نسي أنّه الأمير وأنّه في قصر الحكم، وعاد كأنّه فتى لقي فتاةً تُعجبه، فراح يتغرّّل فيها بعينه. شردت ليلي أيضاً في ابتسامته ووسامته ورشاقة جسده الممشوق. يقفان في ممرّ القصر الخلفي حيث لا حراسة ولا جنود، فقط الزهور والنسيم وليلي والأمير.

وقعت عين ليلى على الزهور، فتذكّرت نادر. شعرت بغصّة في قلبها. هل هذه هي الزهور التي أحضرتها لي يا نادر؟ حدثت نفسها. أفاقت من شرودها وقالت:

- "يجب أن أرحل يا سيدي، فقد تأخّر الوقت. هل تأذن لي؟"

- "تفضّلي يا ليلى. هل توّدين أن أبعث بأحد الجنود معك يرافقك إلى بيتك؟"

انتفضت ليلى عند كلمته تلك، عندما ذكر أحد الجنود. هو لا يعلم كم تبغضهم. قالت بعصبيّة:

- "لا، أنا أعرف طريقي جيّدًا."

استغرب انفعالها المفاجئ، لكنّه سرعان ما تذكّر قصّة مقتل أخيها ففهم، وقال:

- "حسنًا يا ليلى، تفضّلي."

ثم أضاف متردّدًا:

- "ليلى... هل سأراك مجدّدًا؟"

التفتت إليه متفاجئة. هل يطلب منها أن يراها مرّة أخرى؟ بما تردّد عليه؟ لا تدري بما تجيبه. ظلّت واقفةً لبرهة تنظر إلى عينيه مباشرة، ثم انصرفت دون أن تجيبه، فهي لا تعلم لسؤاله جوابًا.

اجتمع الملك والوزير صفوان في قاعة الحكم يتشاوران في بعض أمور الدولة. كان الملك مُعَيَّبًا عن الواقع تمامًا، يكاد لا يغادر القصر. بدأت أمراض الشيخوخة تهاجم جسده الممتلئ بالشحوم، وما عاد قادرًا على تفقد أحوال الناس والمدينة. اعتمد في ذلك على الوزير صفوان، الذي يُصوِّر له أنّ الناس تنعم بالرخاء والترف في الخارج، ويُصوِّر له أنّ كلّ شيء في المدينة يسير كما يجب، ويُصوِّر له أنّه الحارس الأمين الساهر على حماية المدينة وحماية الناس من الأعداء والفقير والغلاء.

لم يكن لدى الملك أيّ شكّ في الوزير صفوان، لأنّه بالفعل كان يعمل بإخلاص في سنواتٍ سابقة من حكمه. عندما كان الملك لا يزال قويًا وفتيًا، كان صفوان يخشاه ولا يستطيع مخالفته أو تدليس الأمور عليه. أمّا الآن، فهو يعلم أنّ الملك لم يعد كما كان، فاستغلّ ذلك وعاث في المدينة خرابًا وظلمًا وطغيانًا. وكلّما أراد الأمير عمر أن يُنبّه أباه لما يحدث، شكّ الوزير صفوان في قدراته ورشاده، وأقنع الملك أنّ الأمير عمر ليس مُحَنِّكًا بالسياسة، وأنّه عاطفي يستدرّ الناس بعطفه ودموعه طمعًا منهم في وليّ العهد، فيصدّقهم.

استغلّ الوزير صفوان اجتماعه بالملك منفردًا، وأراد أن يُحدّثه في أمر الولاية فقال:

- "مولاي الملك، هل اتخذت قرارك في ولاية العهد من بعدك، بعد عمر، جعله الله طويلاً مباركًا؟"

- "الولاية؟ هي للأمير عمر يا صفوان. وهل هناك غيره كي يتولّى الحكم؟"

- "لا يا سيدي، ليس هناك غيره بالطبع. ولكن هل تظنّ أنّه قادر على ذلك؟ أخشى أنّه ما زال صغيراً، وأنّه ينجرف خلف عواطفه يا سيدي. أخشى أنّه لا يستطيع تدبير شؤون الدولة. هل أنت واثق من ذلك يا مولاي؟"

- "لا أعلم يا صفوان، لا أعلم. أحياناً أشعر بأنك محقّ. ولكن لا مجال لتولية غيره. ربّما يُدرك الأمور بشكلٍ جيّد فيما يأتي. أشركه في تفاصيل الدولة ومشاكلها وكيف يتصرّف. أنا أثق بك يا صفوان أنّك تستطيع تغييره وجعله يهتمّ بأمر دولتنا وأن يضع الأمور في نصابها. اجعل ذلك مهمّتك في الأيام القادمة."

- "طبعاً، طبعاً يا مولاي. الأمير عمر أمره يهمنّا جميعاً، لأجله ولأجل دولتنا العظيمة وملكننا العظيم."

- "أحسنّت يا صفوان."

خرج الوزير صفوان من قاعة الحكم وهو يزفر غضباً لا يستطيع كتمه. أسرع بالخروج من القصر، فهو يشعر أنّه إن بقي هنا أكثر سيموت من الغيظ والغضب. خرج وهو يتمتم بينه وبين نفسه:

"تبّاً لك يا عمر... تبّاً لك يا عمر."

ذهب هناك، إلى البحر، لكن ليس ذاهباً إليه هذه المرّة، بل إليها. اشتاق إليها، ذهب علّه يجدها أو يجد أثرها. سيُحدّثه البحر عنها إن كانت قد ذهبت قبل أن يأتي هو. البحر شاهدٌ عليهما الآن، شاهدٌ على نبتة حبّ تنمو ببطءٍ وحذرٍ وخوفٍ وترقّب. يعلم أنّه رأى في عينيها بريقاً لمع بلهفةً عندما رأته صدفة. شعر بها وهي مستأنسةٌ لحديثه، شعر بصمتها يفيض بالكلمات التي تعجز عن الخروج من ثغرها الغصّ. هو أيضاً يعلم جيّداً بينه وبين نفسه أنّه صار يهوى لقاءها، يهوى عينيها، يهوى تلك المشاعر التي تضربه بقوة في حضورها. مشاعر أمانتها زوجته زُمرد منذ أمد، وها هي ليلي تُعيدها للحياة من جديد.

هذه المرّة لم تُخذله المحاولة. وجدها حيث أراد تماماً، تجلس مستندةً إلى صخرةٍ على شاطئٍ بحرهما، شاردةً كأنّما يدور بينهما حديثٌ هما وحدهما من يفهمانه جيّداً. ترجّل من على ظهر جواده وذهب إليها كطفلٍ يشتااق أمّه. ذهب ومشاعره ظاهرةً جليّةً على قسّات وجهه. لن يُوارِيها، لن يخشى شيئاً. سيُخبرها أنّه جاءها عن قصد، سيُخبرها أنّه كان يبحث عنها، سيُخبرها بأنّها أجمل من البحر ومن الزهور ومن الطيور ومن البشر، سيُخبرها بأنّه يحبّ قضاء كلّ لحظةٍ معها، وبأنّ كلّ لحظةٍ معها تساوي عمراً مضى من دونها.

لمحت بعينيها أحدهم قادماً إليها. التفتت، وجدته. وقف أمامها مباشرة. أرادت الحديث، فسبقها وتكلّم هو:

- "ليلي، كنتُ أبحثُ عنكِ."

- "خيرًا يا مولاي، هل حدث شيء؟ هل هناك أمرٌ ما؟"

- "نعم، لقد اشتقتُ إليك."

اتَّسعت عيناها وفغرت فاهها من الدهشة والمفاجأة، واحمّرت وجنتاها، وحملت فيه بذهول. ماذا؟ الأمير عمر يُخبرها بأنّه يشناق إليها؟ يا إلهي، هل أفرح أم أحزن أم أغضب؟ لا أدري... يا إلهي ساعدني. كانت تُحدّث نفسها. نظرت إليه وقالت:

- "ماذا تقول يا مولاي؟ أنا لا أفهم."

- "أقول إنّني اشتقتُ إليك يا ليلي، وكنتُ أبحثُ عنكِ. فهل تمنّين عليّ بصحبتك قليلًا؟ لن أفعل شيئًا يُضايقك، فقط سأجلس إلى جوارك وأنظر إلى الأمواج والبحر من خلال عينيك. سأرى انعكاسهم في عينيك، وهذا أجمل منظر يمكنني أن أراه في حياتي."

جلس إلى جوارها، وسحب يدها وخبأها في يديه. لم تمنعه. شعرت كأنّ أثقال ما مضى من الزمان آن لها أن تخفّ عن كاهلها قليلًا. لمسة يده طمأننتها وبددت وحشةً ضاربةً جذورها في صدرها. ظلًا صامتين ينظران إلى البحر زمنًا، لا يعرفان له حسابًا في قوانين الفلك.

الفصل الخامس

من القاتل

تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن. في تلك اللحظة كان ذلك واقعاً حقيقياً. رجال منصور الذين كُلفوا بمراقبة الأمير شدّدوا مراقبتهم له في الآونة الأخيرة، بأوامر من الوزير صفوان إلى منصور، بعدما أخبروه أنّهم يلاحظون تردّد الأمير عمر على البحر كثيراً في الآونة الأخيرة على غير عادته.

كان في السابق يتردّد على فتراتٍ متباعدة بعض الشيء، أما الآن فقد أخذ يذهب إلى هناك كلّ يومين أو ثلاثة. فأمرهم بمراقبته بشكلٍ شبه دائم حتى يتّضح لهم سبب تلك الزيارات المتكرّرة على غير العادة.

ولسوء الحظّ انكشف أمر الأمير عمر. رجال منصور شاهدوا بأعينهم ما حدث، من دون أن ينتبه الأمير إليهم. فسارعوا بإخبار من يهّمه الأمر... ويهّمه كثيراً.

هناك في القصر جلس الملك على عرشه مصدومًا مذهولًا، لا يكاد يصدّق ما يسمع. الوزير صفوان يُخبره بأمرٍ أكبر من أن يتخيلَه: ابنه ووليّ عهده الأمير عمر بصحبة فتاةٍ على شاطئ البحر! أين عقله؟ أين رُشده؟ كيف حدث ذلك؟ هل نسي أنّه وليّ العهد، وأنّه متزوِّج من أجمل نساء المدينة جميعًا؟ ماذا ينقصه كي يلهث خلف الفتيات التافهات الرعاع من أبناء الشعب؟ هل جُنَّ عقله، أم ظنَّ نفسه صبيًّا صغيرًا يلهو كما يحلو له؟

وقف الملك وصرخ بأعلى صوته في الجنود:

- "استدعوا الأمير عمر فورًا، بمجرد وصوله إلى القصر!"

انتفضت ليلى كمن لدغه عقرب، وقفت ونظرت حولها بذهول، ثم خطت خطوةً إلى الخلف، فخطوتين، ثم ركضت كطفلةٍ تائهةٍ من أبيها وعائلتها، ودموعٌ تتجمّع بقهرٍ في عينيها. ماذا حدث؟ ماذا فعلت؟ ماذا دهاك يا ليلى؟ أهذا ما قطعته على نفسك من عهد؟

سمعت صدى صوته في الخلف يناديها: "ليلى، انتظري!" لكنها تجاهلته تمامًا، وركضت بأقصى سرعة، تتعثّر في ركضها وتلهث كأنّها تلاحقها النيران. لم تذهب إلى بيتها على هذا الحال، بل تركت نفسها تهدأ وتعود إلى رشدها. كان الوقت ليلاً حين طرقت باب بيتها الصغير، ليحتضنها وتغوص بين جدرانها حتى تستردّ نفسها وأمانها وحياتها كما عهدتها: هادئة، رتيبة، خالية من الرجال.

أمّا الأمير عمر فوقف يناديها: "ليلي، انتظري... انتظري يا ليلي!" لكنها رفضت أن تستجيب. أخذ ينظر إلى شبحها وهو يختفي في الظلام، وأخذ يجمع فتات روحه التي تناثرت على الرمال إثر انتفاضتها بين يديه فجأة. شعر بخواءٍ وفراغٍ في قلبه وروحه بعد أن تركته وذهبت دون كلمةٍ واحدة. دائماً ما تتركه وتذهب، هاربةً منه ومن نفسها. يرى في عينيها الكثير، يرى ما في قلبها بوضوح، لكنها تأبى حتى الاعتراف به بينها وبين نفسها. ليلي، جميلته الأبيّة المتمرّدة، ستُشقيه بنارها، وهو الأمير المقيم بحبّها من غير نكران.

امتطى جواده وذهب إلى القصر واجماً، يبدو عليه الحيرة والشroud. وعند وصوله وجد الجنود في انتظاره، يخبرونه بأنّ الملك في انتظاره لأمرٍ عاجل. ذهب إلى قاعة الحكم، فتح الباب، وألقى نظرةً على وجه أبيه الغاضب المحتقن بالدماء. ألقى التحيّة... وانتظر.

تحدّث الملك بعد أن أفرغ القاعة إلّا منه ومن الأمير عمر:

- "يا أمير عمر، هل ما جاءني للتوّ من أخبار صحيح؟ أريد منك الصدق ولا أريد غيره."

- "أيّ أخبار يا مولاي؟ ماذا حدث؟ أخبرني."

- "بعض الجنود شاهدوك وأنت بصحبة فتاةٍ على شاطئ البحر. هل هذا الأمر صحيح؟"

صُدِمَ الأمير عمر من معرفة الأمر بهذه السرعة، فكست أمارات الدهشة وجهه، ممَّا أكَّد للملك صحَّة الخبر.

تحدَّث الملك:

- "إِذَا الأمر صحيح، أليس كذلك؟"

- "بلى يا مولاي، هو صحيح. ما كنتُ لأكذب في حضرة الملك، وما الكذب يليق بي يا أبي."

هدأ الملك قليلاً بعد اعتراف ابنه بهذه البساطة، ممَّا أشعره بأنَّ الأمر ثقيل على ابنه، وبأنَّ خلف الاعتراف ما هو أكبر. فقال:

- "لماذا يا بُني؟ ما الذي دفعك إلى ذلك الأمر؟ أنت لستَ مراهقًا ولا صبيًّا صغيرًا، فأين رشدك وأين صوابك؟ أخبرني، ما الذي دفعك لذلك؟"

- "أبي، أنا أحبُّها وأريد الزواج منها."

- "أهي من أبناء الأمراء أو أحد الوزراء؟ أم من هي؟"

- "لا يا أبي، ليست من الأمراء ولا الوزراء. هي فتاة عاديَّة من أبناء الشعب، لكنِّي أحببتها وأريد الزواج بها. هل تمانع يا مولاي؟ أما كنتَ تريد منِّي الزواج في السابق؟ أما كنتَ تريدني أن أتزوَّج لأتجب الأبناء؟ ها أنا ذا أريد الزواج يا أبي."

- "نعم، أريدك أن تتزوَّج لأرى أبناءك وأحفادي، لكن أن تتزوَّج من أبناء الملوك والأمراء، لا من الرعايا. انس الأمر يا عمر. وإن أردت الزواج فما عليك إلا الإشارة، وستجد أجمل وأفضل بنات

المدينة في انتظارك، لا تلك التي ترافقك على الشواطئ ليلاً. هل فهمت يا عمر؟"

- "لا يا أبي، لم ولن أفهمك هذه المرّة. يكفي المرّة السابقة. هذه المرّة أنا من سيبت في أمري. هذا الأمر يخصني وحدي، وأنا من سيقرّر فيه."

- "إذا تعصي أمري يا عمر؟ تخالفني وتقرّر الخروج علي؟"

- "أبداً يا مولاي، لكن أمر الزواج خاص بي. أنا أريد أن أختار من ستشاركني حياتي وطعامي وفراشي. أبي، أتركني أختار مرّة واحدة مع من أريد أن أكون."

- "لا يا عمر، ليس لوليّ العهد خيارٌ في أن يتزوَّج بامرأة من عامّة الشعب. وليّ العهد وملك المستقبل يجب أن يتزوَّج بمن تليق به. ولا مزيد من النقاش في هذا الأمر."

- "لا يا أبي، أنا سأتزوَّج بمن أريد. ما دام الأمر قد أصبح مُعلنًا بهذه السرعة التي أعجب منها، فلا مجال للمواربة ولا للتأجيل. سأقدّم لخطبتها وسأتي بها لتعيش معي في القصر، بعد إذن مولاي الملك."

- "إن فعلتها يا عمر، فلا تدخل إلى هذا القصر ثانية. فلتذهب أنت لتعيش معها على الشواطئ وفي الخيام. لا مكان لك هنا إن تحدّيت الملك وخالفت أوامره وخرجت عليه لأجل امرأة من الرعا." "

صُدِّمَ الأمير عمر من ردِّ أبيه عليه، ومن انفعاله الشديد بسبب أمر زواجه الذي لا يرضاه. أراد التحدّث فلم يجد ما يسعفه من الكلمات. ماذا يقول بعدما نفاه أبوه من القصر ومن العيش في كنفه؟ أخذت الأفكار تتخبّط في عقله. أكلّ هذا لأنّه أراد الزواج بمن لا تُعجبه، أم هناك شيء آخر؟ هل للوزير صفوان دورٌ خفيّ في كلّ ما يحدث الآن؟ هل هي أفكاره السامّة التي زرعها في عقل أبيه عن عدم صلاحيّته للحكم؟ هل كان صفوان يراقبه بشكلٍ ما، حتى إذا رآه بصحبة ليلي أسرع إلى الملك يُبلغه ويُشعل النيران في صدره ليؤكّد له صحّة ما كان يقوله بحقّ الأمير عمر، ويجعل المشهد ينتهي كما يحبّ تمامًا؟ ها هو ذا أصبح مطرودًا، عاصيًا للملك، خارجًا عليه. لقد جاءت الرياح بما تشتهيهِ سفن الوزير صفوان هذه المرّة.

خرج الأمير عمر من القصر مسرعًا لا يدري إلى أين يذهب. امتطى جواده وقرّر ألا يتراجع. كلّ ما يحدث هو ظلمٌ بيّن له: زواجه بالأميرة زُمرد من البداية، ثم ثقة أبيه في الوزير صفوان وهو عدوّهم اللدود، ولكن أباه لا يدرك ذلك، ثم حرمانه من الزواج بمن أحبّ. لا، لن يتراجع مهما كلفه الأمر. سيسكن الخيام، ويبيت في العراء، ويفترش الأرض، ويتلخّف بالسماء، ولا يقبل لنفسه الهوان أبدًا أبدًا. سيغيّر حياته تغييرًا جذريًا. سيرتك القصر والرفاهيّة، ويذهب ليعمل أيّ عملٍ ويجمع قوت يومه. سيعيش حياة "الرعاع" كما يُسمّيه الملك، حتى إذا ما جلس يومًا على العرش أدرك كيف

يحيا الفقراء، وكيف ينامون، وما يُلقونه من همومٍ على وسادتهم
كلَّ ليلة، ويحملونه على ظهورهم في الصباح.

ليلي تركت العمل في القصر بعدما حدث بينها وبين الأمير،
وكذلك علا صديقتها، فعادت كلُّ منهما تعمل منفردةً في بيتها إلى
حين تدبير عملٍ جيّد لهما. ذات يومٍ ذهبت علا لتتحدّث مع ليلي،
فاستقبلتها في فناء المنزل المطلّ على البحر، وبدأت الحديث قائلة:

- "علا حبيبتي، كيف حالك؟ لقد اشتقتُ إليك يا صديقتي."

- "وأنا أيضًا اشتقتُ إليك. لكن يا ليلي، حالي ليس بخير. ماذا
حدث يا ليلي؟ ماذا حدث؟ أخبريني. ما الذي جعلك تُنهين عملنا في
القصر بهذه السرعة، حتى دون استكمال ما كان بين أيدينا من
عمل؟ تعلمين يا ليلي أنّ أموري استقرّت كثيرًا بعد عملي معك في
القصر، وأنّ عمّي - جزاه الله بما يستحقّ - قد كفّ عن التضييق
عليّ ومضايقتي، وعاملني معاملةً حسنة بعدما أصبحتُ أعطيه من
النقود ما يسدّ جشعه، فرضي عني أخيرًا. أمّا الآن، فعادت ريما
لعادتها القديمة. جفّ نبع النقود يا ليلي، وستجفّ حياتي معه. ماذا
حدث لنترك النعمة التي أنعم الله بها علينا؟ أخبريني رجاءً."

نبرة اليأس في كلام علا قرعت ضمير ليلي. ماذا فعلت علا
لتتحمل ضريبة خطأ ليلي وتهورها؟ فكّرت ليلي في ردّ يُقنع علا
فقالت:

- "علا، لن تبقى الأمور هكذا كثيرًا. أنا أفكر في فتح متجرٍ خاصّ بي وبكِ قريبًا. لقد ادّخرتُ مبلغًا من المال في الفترة الماضية، وسأعمل على البدء في عملٍ مستقلّ بنا. لذلك تركتُ عملنا في القصر، قبل حتى أن نبدأ في أيّ شيء، حتى لا تعمل الأميرة زُمرد على إفساده. بعد قليل ستنسى أمرنا، ويمكننا عندها البدء في افتتاح متجرنا. لن نعمل عند أحد بعد الآن. إنّه حلم يا علا، هل فهمتِ؟ هذا ما أخطّط له. فما رأيكِ؟"

- "إنّه أمرٌ جيّد يا ليلي، ولكن لِمَ لم تُخبريني من قبل؟ أليس من حقي مشاركتكِ واتّخاذ القرار معكِ؟"

- "بلى يا علا، ولكن فضّلتُ عدم الكلام في الأمر هناك في القصر. فضّلتُ فتح الأمر معكِ بعد ترك القصر. هل أنتِ غاضبة منّي؟"

- "لا يا ليلي، تعلمين أنّي أحبّكِ وأثقُ بكِ كثيرًا. تعلمين أنّه ليس لي أحدٌ غيركِ، لذلك أنا معكِ للنهاية."
تدخّلت أمّ ليلي قائلة:

- "الطعام يا فتيات، هيا إلى الداخل لتتناولا الطعام قبل أن يبرد."

- "أجل يا أمّي، هيا بنا. أرايتِ يا علا؟ أمّي ترحّب بكِ كثيرًا، وقد أعدّت لكِ الطعام بنفسها اليوم."

- "حقاً؟ لا بدّ أنّه رائع يا خالتي. سلّمت يداكِ، أنا حقّاً
جائعة."

- "سلّمكِ الله يا ابنتي، ووفّقكِ أنتِ وابنتي ليلى، ورزقكما الله
بالأزواج الصالحين."

ضحكت ليلى وقالت:

- "آه يا أمّمي، إنّهُ الدعاء المرافق لأبّي دعاءٍ آخر. فكلّ دعاءٍ
ستدعيه لي يوماً سيكون في نهايته: رزقكِ الله بالزوج الصالح يا
ابنتي. أليس كذلك؟"

- "في نهايته وبدايته يا عزيزتي. وإن شاء الله سيكون واقعاً
في يومٍ من الأيام."

سكنت ليلى ولم تتكلّم. فكّرت فيما حدث قبل بضعة أيّام.
كانت في الأيام السابقة صامتة معظم الوقت، شاردة، لا رغبة لها
بالحديث ولا بالطعام، تتجنّب الجلوس مع أمّها وزوجة أخيها
وصديقتها علا. كانت علا ستجّرّ من قرار ليلى المفاجئ بترك العمل
في القصر. لم تُخبر ليلى علا بأيّ شيءٍ حدث بينها وبين الأمير عمر،
لأنّ الأمر بالنسبة إليها غير قابلٍ للنقاش مع أحد. إنّهُ أمر بدأ وانتهى
في اللحظة التي أفاقت فيها ليلى وانتزعت نفسها من بين يدي الأمير
عمر. انتهت إلى الأبد بالنسبة إليها، ولا مجال للكلام فيه، ولا حتى
بينها وبين نفسها. هي سائرةٌ على دربها الذي رسمته لنفسها:
تعمل وترعى أبناء أخيها وكفى. لذلك قطعت أيّ صلة أو أيّ طريق

قد يكون في نهايته الأمير عمر، ولن تسمح لنفسها بالتخاذل مرّة أخرى.

"هنيئاً يا صفوان"، تحدّث منصور إلى صفوان فرحاً بهنئه بخبر خروج الأمير عمر من القصر وبخلافه مع الملك الذي ذاع صيته في القصر.

تكلّم صفوان:

- "لا تهنّئي الآن، ليس بعد. ما زال الملك يرى أنّه لا وليّ للعهد سوى ابنه عمر. هو غاضبٌ منه الآن، لكن لن يولي غيره. ذلك العجوز الأخرق لا يرى أحدًا في الكون سوى ابنه عمر. وماذا عن صفوان الذي أفنى عمره في طاعته وفي رعاية المدينة؟ ماذا عني أنا؟ أعيش وزيراً له ووزيراً لابنه من بعده؟ لا، لن يكون."

- "إذاً، ماذا تنوي أن تفعل؟"

- "لقد آن وقت التخلّص من الملك يا منصور. الآن الوقت أصبح مناسباً. الأمير عمر غضب من والده غضباً شديداً لأنّه طرده من القصر، ممّا دفعه للانتقام لنفسه، فسلب أحد الخدم لدس السمّ في طعام الملك حتى ينتقم منه ويجلس على العرش من بعده، ويتزوّج بتلك الفتاة التي يريدّها والتي لا يوافق الملك على زواجه منها."

- "هل ستقتل الملك؟"

- "لا يا منصور، الأمير عمر هو من سيفعل. أما سمعت كلامي السابق؟ سأجعل كلّ أصابع الاتهام تشير إليه. سأتلخّص منهما هما الاثنین بضریة واحدة. سأحكم المدينة وحدي، وليذهب الملك وابنه إلى الجحيم."

- "أنت تحتاج إلى من ينفذ الخطة. هل لديك من يستطيع فعل ذلك؟"

- "لا تقلق يا منصور، فلديّ حلفاء في كلّ مكان في القصر."

أما الأميرة زُمرد، فلما علمت بخروج الأمير عمر من القصر وبخلافه مع الملك بسبب أنه يريد الزواج بفتاة من عامّة الناس، غضبت غضباً شديداً، وأطلت الشرور من عينيها، وأقسمت على الانتقام من الأمير عمر. صفوان استغلّ غضبها وثورتها لصالحه. لقد كان في السابق معجباً بالأميرة زُمرد، معجباً بجمالها الشديد وشخصيّتها القويّة. لطالما تمنّاها زوجةً له، وتمنّى أن يكون هو زوجها بدلاً من الأمير عمر. هو متزوّج ولديه أبناء، لكن زوجته سيّدة عاديّة الجمال لم يحبّها صفوان كثيراً. الآن يرى أنّ القدر منحه فرصةً لا تُعوّض لتحقيق حلمه القديم.

التقى بالأميرة زُمرد سرّاً بعيداً عن أعين الخدم والوصيفات في القصر وتحدّث إليها:

- "أهلاً بسيّدة القصر، وأميرة الأميرات، ومملكة الملكات، الأميرة زُمرد." "

- "أهلاً بك يا وزير صفوان. والآن أخبرني، ما هو الأمر الهامّ للغاية الذي أردتَ التحدّث عنه سرّاً هكذا؟ ماذا تريد؟"

- "أنا يا أميرتي لا أريد إلاّ الخير لي ولكِ ولكلّ من في هذا القصر. ولكن أريد معاونتكِ لي، وتأييدكِ، ودعمكِ الذي سيقوّيني ويجعلني أتخطّى الصعاب لأجلكِ يا أميرة."

- "ماذا تريد يا صفوان؟ أنا لا أفهمك. أفصح."

- "يا أميرة زُمرد، أنا أعلم بأمر الأمير عمر، وبأنّه يريد الزواج بفتاةٍ من رعاة الشعب، وبأنّ الملك طرده من القصر. وأعلم أنّ هذا الأمر يمسّ كرامتكِ وهيبتكِ. فإنّ وُجد من ينتقم لكِ من الأمير عمر، ويردّ لكِ كبرياءكِ وهيبتكِ أمام الجميع، بل ويجعلكِ ملكةً متوّجة تملكين القصر بمن فيه، فهل ستتعاونين معه لتحقيق ذلك وجعله واقعاً؟"

- "وكيف سيتحقّق ذلك بالضبط؟"

- "سيتحقّق يا أميرة، ولكن لا بدّ من التأكّد من ولائكِ لي، والتأكّد أنّك لن تغدري بي. كيف أضمن ولاءكِ يا أميرة زُمرد؟"

شعرت الأميرة زُمرد بأنّ أمرًا خطيرًا سيُطرح الآن. أخذت نفسًا عميقًا وفكّرت بهدوء، ثم قالت:

- "إذا كنتَ تنوي الانتقام من الأمير عمر، فأنا أقسم لك على الولاء والطاعة حتى تُحقّق انتقامك وانتقامي منه. أنا أعلم يا صفوان أنّك تُبغض الأمير عمر وتسعى منذ أمدٍ بعيدٍ لأخذ الولاية منه. هذا ليس بخافٍ عنيّ. وقد كنتَ في السابق تُثير غضبي بشكلٍ لا يوصف لأنّك تريد إبعاد زوجي عن العرش. أمّا الآن، فمن ينتقم لي منه فهو الأولى بالولاء والطاعة. كما أنّك تقول بأنّك ستجعلني الملكة، وهذا أهمّ من أيّ شيءٍ آخر في الدنيا. ولكن كيف ستفعل كلّ هذا؟ أريد أن أعلم بما تفكّر بالتحديد. أشعر بأنّ الأمر خطير."

ابتسم صفوان بدهاء وقد أعجب بفتنة الأميرة زُمرد، واقترب منها قليلاً وقال:

- "أجل يا أميرة، هو خطير بالفعل. سأجعلك الملكة بعد أن أتزوّجك، فإنّه بزواجك من الملك تصبحين الملكة الأمرة الناهية، صاحبة الكلمة النافذة على كلّ من في المدينة، وصاحبة الكلمة النافذة على قلبي أنا. قد تتعجّبين من كلامي، لكنّه حقيقة يا أميرة زُمرد. أنا معجب بك منذ زمنٍ مضى، وأرى أنّ الوقت قد حان لتصحيح بعض الأوضاع في هذا القصر. أنا سأكون الملك، وأنتِ ستكونين زوجتي. ولكِ أن تتأكّدي أنّ هذا هو كلّ ما أتمناه في هذه الحياة. سنتخلّص من هذا الملك الأخرق وابنه المغرور الحالم، وسأجلس أنا على العرش، وسأجعلك سيّدة نساء الدنيا. ماذا تقولين فيما سمعتِ يا أميرتي أنا؟"

سكتت الأميرة زُمرد وفكّرت في كلام الوزير صفوان. هو يستطيع فعلها، فله معاونون وحلفاء في كلِّ مكانٍ في القصر، قابضٌ على زمام الأمور، وجنود الحرس تحت إمرته، ولا يوجد من يعترض طريقه. الخلاف الحادث بين الملك والأمير عمر سيجعل الأمير عمر هو المتّهم الأوّل والأخير في مقتل الملك. سيسجن في سجون القصر العتيقة، وسيوارى الملك التراب، وسيجلس صفوان على العرش وإلى جانبه الملكة زُمرد.

الأمور تعود إلى نصابها مرّةً أخرى بعد أن كادت تهوي إلى السراب. صفوان ليس سيئاً على الإطلاق. الأمير عمر أكثر وسامَةً منه، لكن صفوان بشخصيّته ونضوجه سيحقّق للأميرة زُمرد أحلامها بما يشبه عثورها على المصباح السحري. فإمأةً واحدةً منها الآن له ستجعله خادم المصباح الذي سيسعى بكلِّ الطرق إلى أن ينال رضاها، ورضاها لن يكون إلّا بالجلوس على عرش الملكة ملكةً متوّجةً كما أرادت منذ البداية.

انتظر جوابها، فرفعت رأسها إليه، وابتسامَةً دلالٍ تعلقو شفّتها، ثم همست:

- "موافقة."

الفصل السادس بين ضفاف البحر

"ليس هكذا يا رجل، بل ارمِ الشباك كلّها في الماء دفعةً واحدة،
وليبقَ طرفها معلقًا في القارب لحين شدّها مرّةً أخرى. أرايت؟
هكذا، مرّةً بعد مرّةً سوف تتقنها."

قال تلك العبارة عمّ راشد الصياد الذي عاش حياته كلّها في
البحر وسينهيها فيه أيضًا. كان الأمير عمر يمشي على شاطئ البحر
ليلاً بعدما ترك القصر، حتى وجد العم راشد يللم أدوات الصيد
ويرسي القارب على الشاطئ. حيّاه الأمير عمر فردّ عليه العم راشد
التحيّة وقد عرفه فور رؤيته، فقد كان العم راشد يرى الأمير عمر
وهو يتجوّل في المدينة يتفقّد أحوال الناس.

دعاه العم راشد للجلوس معه قليلاً، فجلس الأمير عمر. رآه
العم راشد مهمومًا حزينًا فحثّه على الكلام. لا يعلم الأمير عمر لِمَ
ارتاح لهذا الرجل الطيّب، فحكى له كلّ ما حدث. كان العم راشد

رجلاً مسناً لكن صحته جيّدة ويحبّ العمل. آثار الطيبة والكرم واضحة على محيّاه الأبيض ذي اللحية البيضاء.

كان بيت عم راشد قريباً من الشاطئ مع مجموعة بيوتٍ أخرى صغيرة لا يعلم عنها الأمير عمر شيئاً. دعاه العم راشد إلى بيته للمبيت عنده، وأخبره ألا يفكر كثيراً، فغداً يجعل الله له مخرجاً من كلّ همّ. طلب الأمير عمر من العم راشد أن يعمل معه مقابل الطعام والمسكن. أخبره العم راشد بأنّه ضيفه، ولا يتوجّب عليه العمل كي يأكل في بيته أو أن يبيت، لكن الأمير عمر أصرّ على العمل: من ناحية ألا يكون ثقيلاً على الرجل الطيب، ومن ناحية أخرى لينحّي الرفاهية جانباً ويأكل من عمل يده كما يريد.

أخبره العم راشد بأنّه يجب عليه أن يتنكّر ويخفي نفسه عن أعين الناس والجنود كي لا يعرفه أحد ويدبّر له مكيدة لا قدر الله. وأخبره أنّه الآن في وضع خطر، وأعداؤه سيقتنصون تلك الفرصة لتدبير المكائد له، وأنّه يجب عليه الحذر من كلّ من حوله وألا يثق بأحد بسهولة، لأنّ الوزير صفوان لن يترك الأمر يمرّ مرور الكرام دون أن يستغله لصالحه.

استضاف العم راشد الأمير عمر في بيته، حيث أعدت زوجته المسنة الطعام لزوجها وللأمير عمر دون أن تعرف هويّته، إذ أخبرها زوجها بأنّه ضيفه وسيقيم معهم في البيت فترةً من الزمن. رحبت السيدة به وعاملته معاملةً حسنة. كان لعمر راشد ثلاثة أبناء من الذكور واثنتان من الإناث، وجميعهم تزوّجوا ورحلوا بعيداً عن

المدينة مع أزواجهم. لذلك استبشرت السيدة خيرًا بالضيف ورحّبت به، لأنّه ذكّرها بأبنائها، فهو في أعمارهم تقريبًا.

بات الأمير عمر ليلته في بيت عم راشد قلقًا مضطربًا يفكّر فيما آلت إليه الأمور. في سكون الليل تذكّرها. أليست هي السبب في كلّ ما يحدث في حياته الآن؟ أين هي؟ أين هي في وحدته تلك؟ هل تشعر به؟ هل تشعر بمعاناته؟ العم راشد وبيته وعمله بالصيد يذكّره بها. أليس بيتها قريبًا من الشاطئ؟ أليس والدها وأخوها كانا يعملان بالصيد؟ يا ليلي، أين أنتِ في ظلمة الليل، وبعد هجر الأهل والمسكن؟

استغفر الأمير عمر ربّه، وكفّ عن التفكير بها، وقام فصلّى لله ودعا أن يصرف عنه السوء وأن يهديه إلى سواء السبيل.

في الصباح أيقظه العم راشد لبدء العمل. تناول معه طعام الفطور الذي أعدّته زوجته الطيّبة، وذهبا سويًّا إلى البحر سائكين الله الرزق والتوفيق. واجه الأمير عمر صعوبةً في بداية العمل بطبيعة الحال، ثم سرعان ما اكتسب المهارة وبدأ يعمل بتفانٍ واضح، وبذهنٍ شارِدٍ فيما سيأتي بعد ذلك.

ذات مساء جلس الأمير عمر مع العم راشد يتسامران، وقد انسجم كلّ منهما بحديث الآخر: رجلٌ عجوز يبحث في شباب الأمير عمر عن أولاده الذين رحلوا وتاهوا في الحياة، وأميرٌ وسيم يبحث عن نصح والده وحكمته التي لا يملّ العم راشد من إلّقاها عليه.

- "هل أنت مرتاح هنا يا ولدي؟"

- "أجل يا عم راشد، أنا بخير حال."
- "نحن سعداء بك كثيرًا يا أمير عمر، ولكن هل ستترك حياتك وملكك؟"
- "لا أعلم ماذا يتوجب عليّ فعله الآن يا عم راشد. أنا حائر وأشعر بعجز شديد. لماذا لا أستطيع إقناع أبي بما أقول دائمًا؟ ولماذا أبي ينصت لصفوان بهذا الشكل المخيف؟ أليس الحق بيّنًا؟ أليس العدل هو مفتاح النجاة للمملكة كلّها؟"
- "الحق يا ولدي بيّن وجليّ، لكنه يحتاج إلى الأقوياء. الحق لن ينصر ذاته إن لم ينصره الأقوياء. والعدل ليس وحده مفتاح النجاة."
- "لا أفهم، أفصح يا عم راشد."
- "العدل يا بُني يحتاج إلى الحكمة معه كي تنير له الدرب، ويمشي في نورها إلى غايته. العدل وسيلة، والحكمة تحمله إلى الغاية. أمّا الغاية فهي رضا الله يا ولدي."
- "أفهمك يا عم راشد، لكن كلامك مزدان بحكمة السنين، وأنا في الحكمة لا زلت أتحمّس لطريقي."
- "تتبعها حتى تصل إليها يا بُني. هي ضالّتك التي إن وجدتتها اهتديت، وإن أدركتها ارتضيت، وإن أهملتها شقيت بهوى نفسك وغرورها."
- "أين أجدها؟"

- "﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾. اسأل الله أن يعطيك يا بُني."

- "وهل يطول الأمر؟"

- "كلّما صَفَتَ نفسك وارتفعت عن الأحقاد والأهواء، كلّما أدركتَ دروبها. تتبعها حتى تصل. جَمَعَ هواك يا عمر، واحكم غضبك، وصارع نفسك الأمّارة بالسوء، حتى تقود نفسك اللوامة، ثم في النهاية ستجد نفسك المطمئنّة في رحاب الحكمة تسير."

- "كم أنا محظوظ برفقتك يا عم راشد، وكم أنا محتاج

لكلماتك التي تبتّ الأمل في صدري وتزيح عني ثِقَلُ الهموم."

- "أنت ابني يا عمر، ولئن أردت حياتي صدّقني لن أتردّد في

إعطائها لك."

- "حفظك الله يا عم راشد، سأذهب لأنام."

- "في حفظ الله يا ولدي."

"أيّها المنادي، نادِ في كلّ أرجاء المدينة بما سأقوله لك: ملكنا العظيم وُجد مقتولاً في جناحه الخاص، وبعدهما فحصه الطبيب أخبرنا أنّه قُتِلَ بالسّم الذي دسّه أحدهم في طعامه، وأنّ الفاعل لن يفلت من العدالة مهما كان. وسيحكم قاضي الدولة المبجل في مقتل الملك، ويأخذ الفاعل عقابه الذي يستحق. والوزير صفوان هو من سيتولّى أمور الدولة لحين ظهور الأمير عمر وعودته، بعدما حدث

خلافُ بينه وبين الملك وخرج من القصر ولم يعد إلى الآن. رحم الله ملكنا العظيم، وحفظ الله دولتنا من كيد الأعداء."

أنهى الوزير جعفر كلامه مع المنادي وأمره بالانصراف. لقد تمَّ الأمر كما اتَّفَق. دست الأميرة زُمِّد السمَّ للملك في الطعام بنفسها أثناء انشغاله ببعض الأمور، بعدما دخلت إلى جناحه تبكي وتشتهي إليه من فعل الأمير عمر وممَّا كان ينوي فعله. هدَّأها الملك وأخبرها أنَّ كلَّ شيء سيعود كما كان، وأنَّها مسألة وقت ويعود الأمير عمر إليها وإلى مكانه في القصر. تظاهرت أنَّها اقتنعت بكلام الملك وابتسمت له، ثم استأذنت بالانصراف فأذن لها.

كان الوقت ليلاً. تناول الملك طعامه، وبعد قليل شعر بالإعياء والتوعك. نادى على الخدم ليحضروا الطبيب. حضر الطبيب بعد فترة، لكن الأمر كان قد انتهى. عاين جسد الملك وما كان يشتكي منه قبل أن يموت، وفحص الطعام المتبقي، فعلم أنَّه مات بالسم.

حضر الوزير صفوان على الفور بعدما وصله الخبر، وأخبره الطبيب بما وجد. شدَّد صفوان الحراسة على القصر، وأمر الجنود بأن يخبروه بمن دخل أو خرج في هذا اليوم واليوميين السابقين. أمر بتفتيش كلِّ الخدم والوصيفات والجنود، حتى الأميرة زُمِّد أمر بتفتيشها. كان قد اتَّفَق معها على كلِّ شيء: ستضع السمَّ للملك وتتخلَّص من الباقي فوراً، ولن تترك خلفها دليلاً واحداً. ستدخل جناح الملك ليلاً بعدما يذهب الخدم والوصيفات إلى غرفهم، وتحرص ألا يراها أحد أثناء دخولها أو خروجها. أخبرها أنَّه أفضل

لهما أن تضع هي السمّ بنفسها، كي لا يكون هناك أحدٌ غيرهما يعلم بالأمر فينكشف السرّ.

جاءت الأميرة زُمرد تبكي وتنتحب عندما أخبرتها الوصيفات بخبر وفاة الملك. انتهت الليلة على هذا، وفي الصباح حضر قائد الجيش والقاضي والوزراء وقد علموا بما حدث. تكلم الوزير صفوان وأخبرهم أنّه سيتولّى أمور الدولة لحين عودة الأمير عمر، وذكّرهم بخلافه مع الملك وطرده من القصر قبل أيّام.

بايعه القاضي فوراً، فالقاضي ولاؤه للوزير صفوان ولا يمكن أن يعارضه. وكذلك بايعه الوزراء. لكن قائد الجيش اعترض، ورأى أن يُبعث بفرقة من الجيش تبحث عن الأمير عمر ليحضر مراسم دفن الملك ويتولّى العهد من بعده. لكن صفوان أخبره أنّ الأمر قد يطول، ولا يمكن ترك جثمان الملك بلا دفن، ولا ترك الدولة بلا حاكم لحين عودة الأمير عمر. أذعن قائد الجيش لكلامه وبايعه.

كان صفوان يعلم جيّداً ماذا يفعل، ويعلم أنّ لا أحد يمكنه معارضته. فهو نافذ الكلمة حتى في حياة الملك، والجميع يعلم أنّه هو من كان يحكم لا الملك.

حضر المنادي، وأخبره صفوان بما سينادي به الناس. انصرف الحضور، وبقي صفوان في قاعة الحكم. جلس على العرش وابتسم. طالما أراد أن يفعلها... ها هو عرش المملكة أخيراً له وحده.

كان يُلقِي الشباك كما علّمه العم راشد ويمارس علمه الجديد: الصيد الذي يعلّمه الصبر والحكمة؛ متى يُلقِي الشباك، وكم من الوقت يصبر، وفي أيّ وقتٍ بالتحديد يقرّر شدّ الشباك والظفر بما رزقه الله به. عملٌ قد يكون بعيدًا كلّ البعد عن شؤون الحكم والعرش، لكنّه كان مهمًّا للأمير عمر أن يتعلّم منه ما لم يكن يتعلّمه بين جدران القصر. وربّما كان مهمًّا له أن يعيش حياة الفقراء، وأن يمرّ بتفاصيل يومهم التي لا يعرف عنها أحدٌ شيئًا غيرهم.

لم يكن في غاية السعادة بما هو فيه الآن، لكنّه يدرك أنّ عليه أن يصبر كما يصبر عندما يُلقِي الشبكة في البحر. يدرك أنّ هناك وقتًا محدّدًا سيستعيد فيه حياته وهيبته وملكه، وأنّ عليه أن يراقب عن كثب كلّ ما يحدث في القصر حتى يحدّد ذلك الوقت بدقّة، وبدون احتمالٍ واحدٍ للخطأ أو للهروب من بين الشباك.

لم يكن يتوقّع أن يراها سريعًا هكذا بعدما قضى في بيت العم راشد بضعة أيّام فقط. كان يُمنّي نفسه برؤيتها، لكون بيت العم راشد على الشاطئ في منطقة يسكنها معظم الصيادين. أخبرته ليلي ذات مرّة أنّها تسكن في بيتٍ بسيط على الشاطئ، بعيدًا قليلًا عن المدينة، وأنّ والدها كان صيادًا ومن بعده أخوها. نفس مواصفات المنطقة التي يقيم فيها الآن. لذلك تمنّى أن يكون بيتها قريبًا من بيت العم راشد، وقد كان ما تمنّاه واقعا.

رآها تقترب من الشاطئ وبصحبتها طفلةٌ صغيرةٌ تلهو حولها فرحة، ومن خلفها غلامان يتبعانها ويحملان كرة. يبدو أنّها قرّرت

اصطحاب الأطفال في نزهة، أو بمعنى آخر قرّرت اصطحاب الطفلة الصغيرة في نزهة، لأنّ الغلامين يرفضان اصطحابها معهما، فقرّرت هي الخروج معها وإرضاءها، كما هو واضح من تدمّر الغلامين وفرح الصغيرة وغيظها لهما. لا بدّ أنّ هؤلاء هم أبناء أخيها الذين ذكرتهم له.

تذكّر كلمتها حين قالت له إنّ الشاطئ هو منفذ الفقراء ووسيلة ترفيههم الوحيدة. ظلّ يراقبها من بعيد، حريصاً على ألاّ يلفت نظرها إليه. لم يكن مستعدّاً لمواجهة بعد. يريد أن يستعيد نفسه أولاً، أن يمرّ من محنته بسلام، ثم بعد ذلك سيتوجّه إليها مباشرة ويخبرها أنّه يحبّها. يحبّها كثيراً لدرجة أنّه نسي همّه بمجرد أن رآها. يحبّها حتى أنّه يبتسم كلّما رآها تضحك للصغيرة وتلاعبها.

يا الله، كم هم رائعون الأطفال، وكم هو محروم من أن يكون له طفلٌ يلعبه ويضحك معه بسعادة كما تفعل هي الآن. تلك كانت أول مرّة يراها كطفلةٍ تلهو وتضحك بسعادةٍ دون حذر. كم كانت جميلة وهي تضحك كالشمس. بقي يراقبها غير مصدّق أنّه مستمتع بكلّ تلك التفاصيل منها دون تخطيط، أو حتى من غير معرفتها هي.

وفجأةً مرّ منادٍ ينادي في الناس بكلامٍ غير واضحٍ في البداية لبعُد الصوت، ثم ما لبث أن وضح الصوت، ووضح معه الخطب الجلل.

كان العم راشد ينظر بين الفينة والأخرى إلى الأمير عمر، فرآه شاردًا معظم الوقت، يوجّه بصره إلى الفتاة البعيدة التي تلاعب صغارًا يلهون حولها. العم راشد يعرف تلك الفتاة: إنها ليلي، ابنة جاره الراحل، وأخت نادر صديق أولاده الراحل أيضًا، الذي قتله جنديّ في السوق أمام الناس. لكن لماذا ينظر إليها الأمير عمر هكذا، كأنّه يعرفها؟

وبينما كان العم راشد يفكّر في الأمر، إذا بمنادٍ ينادي في الناس بخطبٍ جلل: الملك قُتل ولم يُعثَر على القاتل، وسيتولّى الوزير صفوان أمر المملكة لحين عودة الأمير عمر، الذي ترك القصر بعد خلافه مع الملك قبل أيّام من الواقعة.

كان العم راشد يتمتّع بفطنةٍ وسرعة بديهة مكنته من أن يتنبأ بما يُدبّر للأمير عمر في الخفاء. أسرع إلى الأمير عمر الذي تملّكته الصدمة ممّا سمع، وأجبره على الصمت والقدوم معه إلى داخل البيت دون لفت الأنظار إليهما. لم يُقاوم الأمير عمر العم راشد وسار معه إلى البيت.

تكلّم الأمير عمر بعدما استعاد قدرته على الكلام:

- "هل سمعتَ ما قاله ذلك المنادي كما سمعتُه أنا، أم أنّي توهمت ذلك؟"

- "أجل يا بُني، سمعته. إنّه لنباٌ عظيم. هوّن الله مصابك يا بُني وأعانك على ما ينتظرك."

- "أبي قد قُتل... أنا لا أصدّق هذا! وصفوان هو من سيجلس على العرش بعد أبي؟ يجب أن أذهب إليه الآن وأعلم كيف حدث ذلك. يجب أن أذهب إلى القصر فوراً."

كان الأمير عمر غاضباً وحزيناً في الوقت نفسه، يوارى حزنه وضعفه خلف غضبه. أُمات أبوه دون أن يراه؟ هل مات غاضباً منه؟ ومن الذي تجرّأ على قتله؟ هل مات أبوه دون أن يودّعه أو أن يكون بجواره في آخر مرّة سيراه فيها؟ كاد أن يبكي، لكنّه تمالك أمام العم راشد. استبدل الحزن والبكاء بالغضب والثورة. أراد أن يذهب إلى القصر حتى يرى صفوان ويفرغ فيه غضبه ونقمته عليه. كيف له أن يجلس مكان الملك؟ أهذا أوّل ما قرّر فعله بعد قتل الملك؟ همّ بالخروج، فأسرع إليه العم راشد قائلاً:

- "لا يا بُني، لا يمكنك الخروج الآن. أما زلتَ لا تفهم ما الذي حدث؟"

- "ماذا تقصد يا عم راشد؟ ما الذي حدث؟"

تنهد العم راشد بأسى، وأشفق على الأمير عمر ممّا سيقوله:

- "يا بُني، كلام المنادي يعني شيئاً واحداً لا غيره: صفوان يريد أن يُخبر الناس أنّك أنت من قتلت الملك. ولا شكّ أنّه لو عثر عليك سيلقيك في سجون القصر بتهمة القتل، وبهذا يكون قد تخلّص منك إلى الأبد. يا بُني، إنّه أمرٌ دُبرُ بدهاءٍ بالغ. استغلّ خلافك

مع الملك وأعلن عنه لكلّ الناس، ثم تخلّص من الملك، ويريد توريطك أنت في الأمر. وليس لديّ تفسيرٌ آخر لما حدث غير ذلك."

"ماذا؟! هل يجرؤ صفوان على ذلك؟ هل يجرؤ على قتل الملك؟ إن كان ذلك صحيحًا فسأذيقه من العذاب والويلات ما لم ولن يخطر على باله يومًا. ذلك الحقير الدنيء الذي عاش ونعم بخير الملك على الدوام، يكون جزاؤه منه أن يقتله؟ والذي سوّك يا صفوان لأجعلك تندم على أن ولدتك أمك ذكراً، يا خائن يا خسيس!"

- "يا أمير عمر، أنت لا يمكنك الخروج بعد الآن من البيت ولا حتى للصيد. يجب أن تظلّ مختبئاً هنا، لأنّه لا شك أنّ صفوان سيرسل خلفك الجنود والدوريات يبحثون عنك باستمرار. فلنضمن سلامتك يا بُني. أرجوك أن تستجيب لكلام عمك العجوز راشد. أنا أعلم ما أنت فيه يا بُني. هوّن الله عنك ولطف بك، وجزاك الله بصبرك خيراً، وجعل لك من كلّ همّ فرجاً."

صمت الأمير عمر وجلس على الأريكة ونكّس رأسه، وأخذ يذكر الله ويطلب منه الصبر والعون. رآه العم راشد على تلك الحال، وظنّ أنّه يريد أن يبقى وحيداً بعض الوقت، فتركه وانصرف. شعر الأمير عمر بخروج العم راشد، فسمح للعبرات الحبيسة أن تغادر الأسر. دمعت عيناه وبكى أباه بحزنٍ وأسى. نظر في الفراغ أمامه بعجز: لا شيء واضح ولا ملموس، غموض وتيه وأفكار تتلاطم في رأسه، ولا يدري ماذا سيفعل كي ينقذ نفسه ممّا قد يكون بانتظاره قريباً.

سمعت ليلي ما قاله المنادي، فتسمّرت مكانها لوهلة، لا تصدّق ما تسمع. نظرت حولها لتستيقن الأمر: الملك قُتل، والأمير عمر ترك القصر. سألت نفسها: لماذا ترك القصر؟ وما سرّ خلافه مع الملك؟ رأت ليلي الناس حولها يتحدثون في الأمر، وتبدو على وجوههم الدهشة، والبعض ظهرت عليه علامات الغضب. خمّنت ليلي سرّ غضب الناس حولها: غاضبون لأنّ الوزير صفوان هو من سيتولّى شؤون المملكة لحين عودة الأمير عمر، فهم يعلمون مدى سوءه ويخافون بأسه عليهم.

البعض الآخر أخذوا يردّدون عباراتٍ تتمنّى عودة الأمير عمر سريعاً، فهم يعلمون مدى حبّه للناس وحرصه على مصالحهم وشؤونهم، ولقد رأوا ذلك بأنفسهم في السابق. أمّا عن خبر قتل الملك فلم يشغلهم كثيراً، أو ما شغلهم في الأمر هو: من فعل ذلك؟

آثرت ليلي العودة بالأطفال إلى البيت وإنهاء النزّهة. رجعت إلى بيتها وذهنها مشغول وحائر: يا ترى، أين الأمير عمر الآن؟

الفصل السابع

القرار

بعد عدّة أيام، قال الأمير عمر للعم راشد وهو يزفر غضبًا ويجيء ويذهب في الغرفة، يشعر أنّ الجدران الأربعة التي تحاوطه تخنقه وتضيّق عليه:

- "يا عم راشد، أنا لن أبقى هنا مختبئًا أكثر من ذلك. سوف أجنّ لو بقيت هكذا ولم أتمكّن من معرفة من قتل أبي. يجب أن أخرج وأسعى لاستعادة عرش أبي والانتقام من الخائنين. لن أدع صفوان يهنأ بما خطّط له ويظنّ أنّه انتصر في النهاية. كما أنّ اختفائي عن الأنظار بعد خبر مقتل أبي يضعني في موضع الاتهام. كيف لابن الملك أن يعلم بخبر مقتل أبيه ويظلّ بعيدًا عن القصر، إلّا إذا كان متورّطًا في الأمر؟ ولا شكّ أنّ الخبر وصل إلى كلّ البلاد المجاورة لنا. لذلك يا عمّاه، لا بدّ من المواجهة."

نظر إليه العم راشد بإشفاق ثم قال:

- "أنا معك يا بُني. يجب أن نجد مخرجًا، ولكن يجب أيضًا الحرص والحيلة والتفكير جيّدًا قبل فعل أيّ شيء. يجب أن تحسب خطواتك جيّدًا يا بُني."

- "أجل يا عم راشد، دائمًا ما تُصيب الرأي. لا تقلق، سوف أدبر كلّ شيء بصبرٍ وحكمة. لقد تعلّمت منك الكثير يا عمّاه."

- "أعانك الله يا بُني. ولكن من أين ستبدأ؟ وبمن ستستعين؟"

- "أريد أن أصل إلى قائد الجيش. أنا أعلم أنّ ذلك الرجل لا يحبّ صفوان ولا يرضى عن أفعاله، ولكنّه لا يملك سلطةً عليه. لو تمكّنت من الوصول إليه والاستعانة به، فسيكون ذلك خطوةً جيّدة جدًّا للتغلّب على ذلك الجبان."

- "وكيف ستصل إليه إذا؟"

- "لا أملك جوابًا واضحًا الآن، لكن يجب أن أصل إليه بأيّة وسيلةٍ ممكنة."

ليلاً، بعدما غفّت العيون واحتضنت الأهداب بعضها بعضاً، وراح الليل ينسج نسيجاً من الظلام والوحشة في قلوب من جفاهم النوم، فتضيق عليهم الأرض بما رحبت، وجد الأمير عمر نفسه يكاد يختنق إن بقي دقيقةً واحدةً أخرى بين تلك الجدران الأربع.

خرج من بيت العم راشد يستنشق الهواء العذب، غير مبالٍ إن كان سيتعرّف عليه أحدهم أم لا. ما يمنعه والبحر أمامه، والليل يحاوطه، والناس نيام. هو يحتاج تلك النزهة العابرة لينفث ما في صدره من آلامٍ وهموم، وحتى يستطيع المواصلة والصمود.

مشى على الشاطئ وهو يتذكّر ما حدث في الأيام القليلة الماضية: كيف انقلبت حياته رأساً على عقب، وكيف مات أبوه وهو بعيدٌ عنه. ورغماً عنه تذكّرها... إنّها ليلي، تلك الحبيبة البعيدة. كم يحتاجها الآن ليبثّ إليها همومه، وتُحاوطه بحنانها الصافي الذي لمسّه في المرّة التي التقيا فيها.

أخذته أقدامه إلى الناحية التي رآها فيها منذ عدّة أيّام. يا تُرى، هل هذا بيتها؟ يا تُرى، هل لو وقفت أمام البيت أُناديها بقلبي، هل ستُلبّي النداء؟

يا ليلي... يا شقائي الذي لا أريده أن يرحل عني، تعالي إليّ، فأنا عاشقٌ متيمٌ بحبك يا سيّدي.

ليلى كانت مستيقظة، وكعادتها كلّما جفاها النوم فتحت نافذتها وظلّت ناظرةً إلى البحر بشرود، إلى أن يتسلّل النوم إلى أهدابها بهدوء مع نسيم البحر. كانت تفكّر فيه: أين هو الآن؟ مضت عدّة أيّام منذ مقتل الملك ولم يظهر. هل ما يتردّد على ألسنة البعض صحيح؟ هل له دورٌ في مقتل أبيه؟ لا يمكنها أن تصدّق أبداً. هو النبيل الرقيق، الحالم، الرفيق بالناس... يقتل؟ ومن يقتل؟ أباه؟ لا يمكنها أن تصدّق، ولو أقسم على ذلك الناس جميعاً.

على ضوء القمر، وأثناء استغراقها في أفكارها، رأت أحدًا يمشي على الشاطئ بتمهّل. ليس من عادة أحد أن يمشي في تلك المنطقة في هذا الوقت المتأخّر من الليل. رأت ذلك الشخص يقف وينظر في البيوت المجاورة وكأنّه يبحث عن شيءٍ ما. دققت النظر... وشهقت. هل يُعقل؟ هل هذا هو؟ ظلّت محدّقةً فيه. هو... أجل، هو.

ظلّ ينظر في البيوت قليلًا، ثم صرف وجهه إلى البحر. لم يلاحظ وجودها في النافذة بسبب ظلام غرفتها. لم تُفكّر كثيرًا، حسمت أمرها، ثم تسلّلت من البيت بعدما هرعت إلى حجابها، ووضعتة على رأسها بلا رتابة، ومشت إلى الخارج في اتجاهه مباشرة.

هل يمكن للأحلام أن تتحقّق هكذا بسرعة؟ هل ما نتمناه نجده أمامنا بلمح البصر؟ ظلّ ناظرًا إلى شبحها وهي تقترب منه، غير مصدّق أنّه يراها فعلًا. استدعاها بقلبه فلبّت النداء. نعم، الساكن أنت يا ليلي، سكنت قلبه، وها هي تثبت له أنّها خير ساكنٍ لهذا القلب النبيل.

وقفت أمامه مباشرة، ناظرةً إلى عينيه، تفيض من عينيها مشاعر متضاربة: لهفة وخوف وعتاب. أرادت الكلام فلم تعرف من أين تبدأ. شيءٌ من السحر تشعر به؛ هي ليست متحكّمة بنفسها ولا بأفعالها، تشعر كأنّها ليست مخيرةً في أن تأتي إليه. شيءٌ ما يدفعها دفعًا، هي أسيرةٌ تمامًا بين يديه الآن.

البحر بساطٌ لهما، والنجوم مصابيح تتوهج فرحاً بهما،
والقمر قنديلٌ كبيرٌ ساطع لهما، ينعكس بريقه في عينيهما. لا يمكن
أن يكون السحر أروع من ذلك. كأنَّ الكون خلا من كلِّ الأشخاص
والأشياء عداهما.

تكلّم هو أوّلاً:

- "ليلي، من أين أتيتِ؟ من أفكاري خرجتِ أم أنا أتوهم أنّك
هنا؟"

- "أنا هنا فعلاً يا أمير عمر. كيف هو حالك؟"

- "كيف الحال؟ لا أرى في حالي ما يُسرّ، ولكن يمكن أن يكون
حالي بخير الآن بعد أن رأيتك. اشتقتُ إليك يا ليلي."

صممت ليلي ونظرت إلى الرمال تحت قدميها، وأمواج البحر
تلاعبها بهدوء، ثم واصلت حديثها دون أن تنظر إليه:

- "لا أدري يا أمير عمر ماذا أقول لك. أأقول: عظمّ الله أجرك
وخفّف مصابك ورحم الله أباك؟ أم أقول: ما قولك فيما يتحدّث به
بعض الناس وما أشاعه الوزير صفوان في البلاد؟"

- "وما قولكِ أنّي يا ليلي فيما يقوله الناس عني؟"

- "وهل تدري ما يقولون؟"

- "نعم، أعلم ما يتردّد في البلاد منذ مقتل أبي: الابن العاق،
نشب بينه وبين أبيه خلاف، فغادر القصر، ثم عاد فقتل أباه، وهرب
واختفى عن الأنظار. أليس كذلك؟"

شعرت ليلي بالخرج من موقفها. هو يعلم بكل ما يحدث في المدينة، فلماذا هو صامت إلى الآن؟ ما حقيقة الأمر إذًا؟

قاطع أفكارها بصوته الأَجَش الذي يتخلّله الحزن والألم:

- " ما قولكِ يا ليلي فيما يقوله الناس؟ "

- " لا أصدّق يا أمير. "

- " وما الذي يجعلك لا تُصدّقين، مع أنّ الكلام يبدو منطقيًا بعض الشيء؟ نعم، لقد نشب خلاف بيني وبين الملك، وغادرتُ على إثره القصر، ثم قُتل الملك بعد ذلك بأيام قليلة. "

- " لا أعلم... حدسي يخبرني بأنك لم تفعلها. أنت تقتل؟ ومن تقتل؟ أباك؟ لا شيء يجعلني لا أصدّق سوى حدسي يا أمير. "

نظر إليها الأمير عمر طويلًا، أراد أن يقترب منها أكثر كي يُبَيِّنَ حزنه وألمه، وينعم بمواساتها له، لكنّه آثر ألا يفعل كي لا تهرب من بين يديه كما فعلت من قبل. قطعت هي الصمت قائلةً باضطراب بعدما لمحت نظراته إليها:

- " وماذا تنوي أن تفعل؟ أين تُقيم الآن؟ أظنّك تُقيم في أحد البيوت المجاورة لهذا المكان. "

- " أجل يا ليلي، إنني قريبٌ منك طوال الوقت. ولقد راقبتكِ أكثر من مرّة في الأيام التي سبقت وفاة أبي، وأنتِ تلهين على الشاطئ مع أبناء أخيك، وليس يشغلكِ عمر، مع أنّ عمر هنا بسببكِ أنتِ، وكلّ ما حدث كان بسببكِ أنتِ. "

- "بسببي أنا؟ كيف ذلك؟"

- "الخلاف الذي حدث بيني وبين الملك كان بسبب أنه رآني أحد الجنود وأنا إلى جوارك على الشاطئ آخر مرة، فأسرع بإخبار الملك بالأمر. وعندما عدتُ إلى القصر واجهني الملك، فأخبرته بأن الأمر صحيح، وبأنني أريد أن أتزوجك."

بهتت ليلي وذهلت، وفغرت فاهما ونظرت إليه بصدمةٍ وعدم تصديق. ماذا يقول الأمير عمر؟ يريد أن يتزوجها!! لو كان أخبرها لوقرت عليه كل تلك الأزمات والمشاكل التي مرَّ بها لأجل ذلك الأمر. هي ليست للزواج، وإن حدث وتزوجت ذات يوم، فلا يمكنها الزواج من الأمير عمر مطلقاً. ليست ممَّن يطمحون بعيش الأميرات، وليست ممَّن يسكنون القصور والأبراج العالية بعيداً عن أهلها وبيئتها التي نشأت فيها.

ضحكت رغماً عنها بصوتٍ عالٍ بعض الشيء، لأول مرة يسمعه منها، لسخافة الأمر من وجهة نظرها، ولعجبها من تطوُّر الأحداث بهذا الشكل لأجل أمرٍ محكومٍ عليه بالفشل قبل أن يبدأ.

نظر الأمير عمر إليها واستغرب ضحكتها غير المتوقَّعة بالنسبة له وقال:

- "ما الأمر يا ليلي؟ هل يبدو الأمر مزحاً بالنسبة إليك؟"

- "لا يا أمير، لكن فقط تعجَّبتُ بعض الشيء."

صمت الأمير عمر وأثر عدم الاستمرار في الحديث. فكّر في وضعه الآن وفي مشاكله التي يجب أن يجد لها حلاً أولاً، ثم بعد ذلك يفكّر في زواجه من ليلي. نظر إلى البحر أمامه وهو يشعر ببعض الغضب؛ ضحكتها كانت مستفزّة له بعض الشيء.

أدركت هي خطأها وتفهمت عدم رغبته في التحدّث في الأمر الآن، فتداركت الخطأ وأسرعت بالحديث قائلة:

- "ماذا أنت فاعل يا أمير عمر؟ كيف ستبني للناس أنك لم تفعلها؟ كيف ستتغلب على الوزير صفوان؟"

- "في الصباح يا ليلي... ستعلمين كل شيء."

شعرت بالخوف عليه. قالها بجديّة وحسم كأنه ينوي أمراً. أشفقت عليه من حاله، وتمنّت أن تمرّ الأزمة بسلام دون أن يتأذى أو يصيبه مكروه. نظرا إلى البحر سويّاً على ضوء القمر الذي يداعب أمواجه كأنّه حبيبٌ يدلّل حبيبته الغاضبة. ساد الصمت المكان، ما عدا دقات قلبيهما التي تدقّ بحبّ كلّ منهما للآخر.

في الصباح امتطى الأمير عمر جواده الذي كان مختبئاً في بيت العم راشد، بعدما ارتدى ثيابه الملكية التي كانت مخبأة أيضاً. وقد عقد العزم على ألا يتراجع، فلا بدّ من المواجهة وإنهاء هذه المهزلة والانتقام لأبيه في أقرب وقت. لن يدع الفاعل يهنأ بفعلته ويظنّ أنّ الأمور استكانت له.

نظر إليه العم راشد بقلقٍ وإشفاقٍ وقال:

- "يا عمر يا ولدي، هل تظنُّ أنّك تفعل الصواب؟"

- "لا تقلق يا عم راشد، لن يحدث إلّا ما شاء الله وما قدر. وإنّي لن أظللّ مكتوف الأيدي هكذا كثيرًا. سأذهب لأطالب بحقي وأبحث عن قاتل أبي. ولنّ متُّ أو حدث لي مكروه، سأكون قد فعلت ما يجب فعله، لأقابل أبي برأسٍ مرفوع، بأنّي لم أترك حقّه يضيع هباءً. أستودعك الله يا عمّاه، ولن أنسى جميلك ما حييت. لقد كنت في مقام أبي بعد أبي."

- "صحبتك السلامة يا بُني، وسدّد الله خطاك، ودافع عنك، وسخرّ لك من الصالحين من يشدّ أزرِك. في رعاية الله يا ولدي."

ودّع الأمير عمر العم راشد، وانطلق قاصدًا قصر قائد الجيش، وبعدها سيشقّ طريقه إلى قصر أبيه حيث سيواجه الوزير صفوان. أن لصاحب الحق أن يزأر في وجه المعتدي، أن للطاغي أن يحصد ما اقترفت يداه.

الفصل الأخير

صراع الخير والشر

انطلق الأمير عمر يشقّ طرقات المدينة بجواده، غير مهتمّ بعيون المارّة التي أخذت تراقبه بذهول: هل هذا هو الأمير عمر؟ أين كان؟ ومن أين أتى؟ كان يحثّ الجواد على الإسراع لأنّه يعلم ما سيحدث؛ سرعان ما سيراه الجنود وسينقلون الأخبار إلى صفوان. يجب عليه أن يسرع، عليه أن يتكلّم مع قائد الجيش قبل أن يمسك به جنود صفوان.

هناك، على بوّابة قصر قائد الجيش، ترجّل من على جواده وأخبر الجنود أنّه يريد مقابلة قائد الجيش حالاً. أذعن الجنود لأمره وسمحوا له بالدخول، فهو ما زال الأمير عمر ابن الملك، حتى وإن أمر صفوان باعتقاله.

دلف إلى القصر وقابل قائد الجيش وبدأ بالسلام:

- "أهلاً يا قائد الجيش، كيف الحال؟"

- "أهلاً يا أمير عمر. أخبرني أنت، كيف حالك؟ وماذا حدث؟"

- "أوليس ما حدث يتردد في أرجاء المدينة؟"

- "أريد سماعك يا أمير عمر."

- "هل تظن أنني أفعلها يا قائد الجيش؟ هل تظن أنني أقتل أبي؟"

- "أنا هنا لا أدع مجالاً للظنون يا أمير عمر، ولكن لمعرفة بك سأصدقك فيما تقول وبلا شك."

- "لم أفعلها."

- "أصدقك."

- "لا أريد تصديقك فقط يا قائد الجيش، ولكن أريد تحالفك. أنا وأنت ضد صفوان والقاضي والباقيين."

- "لك هذا يا أمير عمر، ليس فقط لأجلك، ولكنني سئمت من صفوان، سئمت من بطشه وظلمه وتجبره في المملكة. ربّما أتى الوقت لتصحيح الأمور يا جلالة الملك."

- "جلالة الملك؟!"

- "نعم، وهل سيكون هناك ملك غيرك؟"

- "ليس الآن يا قائد الجيش... الثأر أولاً."

انتشر الخبر كالنار في الهشيم، واحتشد الناس عند قصر الحكم. استشاط صفوان غضبًا: لماذا لم يُحضر الجنود الأمير عمر مقيّدًا بالأغلال؟ لماذا سمحوا له بالدخول إلى قصر قائد الجيش؟

تكلّم بغضب:

- "يا قائد الحرس، اذهب الآن إلى الأمير عمر وأحضره إلى هنا مقيّدًا بالأغلال. أريد أن أراه حالًا بين يدي!"

- "سيدي، لقد علمت أنّه قادم إلينا الآن، ليس وحده ولكن برفقة قائد الجيش. لقد تحالفا."

- "رائع، هذا جميل. سينتهي كلّ شيء الآن. لتكن حربًا إذا إن أرادا."

- "نحن معك يا سيدي، لا تقلق، لن نتخلّى عنك."

- "أعلم ذلك يا منصور، لكنّي أريد كسب تعاطف الناس معنا. لا أريدهم أن يثيروا مشاعر الناس. علمت أنّ هناك تجمّعًا كبيرًا بالخارج."

- "لا تقلق يا سيدي، لن نترك لهما المجال ليفعل ذلك. لدينا شهود سيشهدون بأنهم رأوا الأمير عمر يتسلّل إلى القصر ويخرج منه ليلة مقتل الملك."

- "دائمًا أنت عند حسن ظنّي بك يا منصور. الآن استعد أنت وجنودك للمواجهة."

- "أمرك يا سيدي."

بالخارج احتشد الناس وتجمهروا. بعضهم يقسم أنه رأى الأمير عمر منذ قليل يمتطي جواده في طرقات المدينة، وبعضهم جاء عندما سمع الخبر من أحد جيرانه أو من المارّة. ليس خبراً عادياً يمكن تجاهله. ماذا سيحدث الآن؟ هل سيقبضون على الأمير عمر وينتهي به الأمر في غياهب السجن؟ أم سيقتلونه لأنه قتل الملك؟

"لا، هو لم يقتل... لا يفعلها الأمير عمر." هكذا كان البعض يردّد. بينما جاء آخرون لمشاهدة الأمر دون اكتراث بالنهاية.

من ضمن الجمع كانت ليلي، تدعو الله في سرّها بينما ترتجف أوصالها دون أن تشعر، أن يُنجي الله الأمير عمر ويحفظه من كيد الكائدين. كما جاء أيضاً العم راشد وقد أشفق على عمر ممّا قد يلقاه.

كان الوقت ضحّى، وقد قاربت الشمس على أن تتوسّط كبد السماء، شاهدةً على صراع أوشك أن يبدأ. بعد قليل جاء الأمير عمر على ظهر جواده في عزّة وإباء، معلناً بهيئته وطلّته أنّه لن يستسلم بسهولة، ولن يخضع لظلم ولا لقهر، حتى وإن كان الثمن حياته. جاء محاطاً بجنود قائد الجيش، وقائد الجيش إلى جانبه. مشهّد مهيب جعل الخوف يدبّ في أصحاب القلوب الضعيفة.

الحقّ دائماً أقوى وإن تجرّب الظلم وبغى. صاحب الحقّ أقوى. صاحب الحقّ أبقى.

تقدّم الأمير عمر حينما خرج صفوان لاستقبال الوفد القادم.
تقدّم صفوان الجنود وظلّ واقفاً على باب القصر الرئيسي. لحظات
من الصمت مرّت كالساعات.

دار الأمير عمر بجواده عدّة دورات حول نفسه في زهو، ناظرًا
إلى صفوان باستعلاء، بينما صفوان لا يُظهر أيّة ردّة فعل.

تكلم الأمير عمر:

- "ها قد جنّت يا صفوان. سمعتُ أنّك أرسلتَ رجالك في
طلبي."

- "أهلاً يا أمير عمر. افتقدناك كثيرًا. أين كنتَ مختبئًا يا
رجل؟ ليس من أخلاق الأمراء أن يختبئوا كالفئران بعدما يرتكبون
الآثام. كان يجب عليك المواجهة كالرجال."

- "وما هي الآثام التي ارتكبتها برّبك؟

- "ألا تعلم ماذا فعلتَ حقًا؟ أم إنّك تظنّ أنّك قادر على خداع
الناس؟ ألم تقتل الملك يا عمر في جوف الليل وتغادر بذنبك اللعين؟
ولأجل ماذا؟ لأجل فتاةٍ من الخدم عارضك والدك في الزواج بها؟
أهذا هو برّك بالملك أيّها الابن العاق؟ والآن تأتي بكلّ جرأة، بدلًا من
أن تُقرّ بفعلتك، جنّت متّحدًا مع قائد الجيش الذي ما أحبّ الملك
يومًا ولا أظهر الولاء له يومًا، لتستوليا على عرش المملكة؟ أليس هذا
ما جاء بكما؟ أتظنّ أنّ الأمر ليس جليًا للعامة؟ الجميع أدرك زيفك
وتهوّرك وجشعك، حتى إنّك أنهيتَ حياة والدك لتستولي على

العرش. تعجّلت الأمر فقرّرت إنهاء حياته بنفسك، وحتى تستطيع ممارسة حياتك الصبيانية غير الناضجة بلا حساب. أهذا هو حاكمكم الذي تريدون؟ أهذا هو مستقبلكم الذي تأملون؟ مكانك السجن، وليس أيّ مكانٍ آخر يا عمر."

- "هل تظنّ أنّ هذا سينجح يا صفوان؟ هل تظنّ أنّ الناس ستصدّق تلك الأكاذيب؟ أنا من يقتل أباه، أيّاً كان السبب؟ ولماذا لا تكون أنت من فعلها؟ ها أنت تجلس على عرشه الآن، ألا تلاحظ أنّك الوحيد الذي استفاد من الوضع الحالي؟"

- "أنا لديّ شهود يا عمر، أنا لا ألقى التهم جزافاً مثلك. أحضروا الحارس الذي رأى الأمير ليلة مقتل الملك في القصر."

تعجّب عمر أنّ صفوان جهّز شهوداً، لكن ليس كثيراً، فهو يمكنه فعل أيّ شيء حتى يصل إلى مبتغاه. أقبل الحارس حيث وجّه الجنود الآخرون، وأشار له صفوان أن يتكلّم. قال صفوان:

- "تكلّم يا رجل وقل الحقّ، ماذا رأيت ليلة مقتل الملك؟"

تكلّم الحارس بثبات، دون أن ينظر إلى الأمير عمر:

- "أنا كنتُ أحرس البوّابة الخلفيّة للقصر كما كلّفني سيدي. وبينما أنا أجلس عند البوّابة، رأيتُ شبّحاً في الظلام يتسلّل إلى القصر من على السور. أسرعْتُ إليه واشتبكتُ معه، لكنّه كان قويّ البنيان، فتى العضلات، كأنّه جنديّ أو فارس. وكان قد أخفى وجهه فلم أتبين ملامحه، كما لاحظتُ أنّه كان يعلم مداخل وطرقات القصر

جيدًا. غلبني ذلك الشبح وضربني على رأسي، ففقدت الوعي. وأثناء ما كنت أفقد وعيي تشبَّتُ بلثام وجهه وكشفتُ عن وجهه، وتبيَّنت أنه كان الأمير عمر. وبعدها أفقتُ على خبر مقتل الملك، فهرولتُ إلى الوزير صفوان وأخبرته بما كان.

علا صوت الناس وهممتهم بين مصدق ومكذب. الناس في حيرة من أمرهم: حلفاء ومعاونون لصفوان يصدّقون، وعمامة الشعب لا يستطيعون تصديق الأمر بسهولة. إنّه الأمير عمر، الصادق الودود، الذي طالما وقف إلى جانبهم وساندهم. وهذا صفوان الذي أذاقهم الظلم والويلات. كيف لهم أن يصدّقوه ويكذبوا الأمير عمر؟

وبينما هم الأمير عمر أن يتحدث ليبرئ ساحته، إذ برجل عجز يشق طريقه بين الصفوف ليصل إلى المقدّمة، ويقول بصوت أجش فيه وهن الشيب وقوة الإرادة:

- "هذا الكلام غير صحيح. الأمير عمر كان يبيت في بيتي ليلة الحادث المشؤوم، وكنتُ أجالسه طوال الليل، ولم يترك بيتي ليلتها أبدًا. وعلم بالأمر مثله مثل الناس في اليوم التالي."

كان ذلك العم راشد، الرجل القويّ برغم الهرم، الرجل الذي قال كلمة الحقّ في وجه سلطان جائر، ولم يخش العقاب ولا العواقب. تقدّم بعاطفة الأب الذي يرى ابنه يُظلم وهو قادر على دفع الظلم عنه، فلم يستطع أن يخذله ولو كلّفه الأمر حياته.

تكلم صفوان:

- "من أنت يا رجل؟ ومن أذن لك بالكلام؟"

- "أنا العم راشد، رجلٌ من عامّة الشعب. استضفتُ الأمير عمر في بيتي طوال الوقت الماضي، ممّا زاد بيتي شرفاً. وأنا أقول لك إنّه لم يقتل أحداً. ولديّ من الجيران من يشهدون معي، يشهدون أنّه كان معي الأيام الماضية ضيفاً كريماً لم يعلموا هويّته ولم يتوقّعوه. لقد كان الأمير عمر."

تكلّم الأمير عمر:

- "لمّ فعلتَ ذلك يا عم راشد؟ عرضتَ نفسك للهلاك يا رجل. هل هذا جزاء معروفك معي؟ أن أعرضك للأذى؟"

- "لا تقلق يا أمير عمر. لن يُصيبنا إلّا ما كتب الله لنا. الحقّ أقوى من الجميع يا ولدي. وكاتم الحقّ شيطانٌ أحرص، وأنا لستُ بشيطان. أنا والدك يا عمر."

لولا قوّة الموقف لانهار الأمير عمر بالبكاء واحتضن ذلك الرجل الكريم، لكنّه تمالك نفسه. ثمّ تكلّم مخاطباً صفوان:

- "الآن ليس لشهودك أيّ قيمة يا صفوان. الآن برئت ساحتني. ولكن لم أعرف بعد من قتل والدي. لذلك أنا أدعوك الآن لترك القصر لي، والسماح لوليّ العهد بتوليّ عرش أبيه، حتى أتمكّن من العثور على قاتل أبي. وأعدك يا صفوان أنّي عندما أتيقن منه لن أرحمه أبداً، ولن يهنأ بيومٍ من حياته بعد الآن."

"ليس بتلك البساطة يا أمير. هل تظنّ نفسك فطرتَ على الدلال؟ لا تتدلّل عليّ يا عمر. الآن هي الحرب، فلترني كيف ستتخطّاني لتجلس على العرش؟"

كانت ليلي في الحضور تتابع بصمت، وكانت الأميرة زُمرد تتابع من نافذة القصر. الآن بدت الأمور أكثر تعقيدًا. حيل صفوان للإيقاع بعمر باتت واهية أمام شهادة ذلك العجوز، وموقف عمر الآن أقوى. لم تكن زُمرد تريد ذلك، ولم يعدها صفوان بذلك. ماذا لو علم عمر بأمرها، وبأنّها هي من قتلت الملك؟ ارتعدت فرائصها وخافت من المصير المجهول.

قرّرت فجأة تحويل الأمور لمسار آخر بسرعة قبل التدهور. وقبل البدء بالتنفيذ، ألقت نظرة على ليلي: أهذه من تتركني لأجلها؟ أهذه من يحدث بسببها كلّ هذا؟

أنا الأميرة زُمرد، صاحبة الأمر والنهي، صاحبة الدلال في أسرتها دائمًا. ما كانت تريد شيئًا إلا ويكون بين يديها في الحال. ما عوقبت أبدًا على أخطائها، ودائمًا كانت فوق الجميع، فوق إخوتها حتى. شربت الدلال بكلّ ألوانه، حتى تجبّرت الأنا فيها. لا أحد أفضل منها، ولا أحد يرفض لها أمرًا، ولا أحد تسعى لرضاه. يجب أن يسعى الكلّ لرضاه، ويكون الكلّ طوعًا لها برغبته أو بغير رغبته.

عند هذا الحدّ عماها التفكير، وذهبت إلى السهام وصوّبت تجاه صدر الأمير عمر. حاولت الاختباء حتى لا يُعلم من الفاعل. سيحدث هرج ومرج، وسيستغلّ صفوان الأمر، وستنجو هي. صوبت تجاه

صدر زوجها، ولكن لم تتقن السداد، فأصاب السهم جنديًا من الجوار في كتفه.

وعند هذا الحدّ انطلقت المعركة. تراجع الناس إلى الخلف، واشتعلت الساحة، وراح كلّ فريقٍ يدافع عن مبادئه وأهدافه. الخير في مواجهة مباشرة مع الشر. من سينتصر؟ من سيحسم الأمر لصالحه؟ لا أحد يعلم.

استعاد العامّة صفوفهم وراحوا يحاربون بكلّ ما استطاعوا من قوّة إلى جانب الأمير عمر. ليلي خافت، لم تخف على نفسها، بل على أمّها وثلاثة من الأبناء وصديقة وزوجة أخ راحل وحبيب. مع من ستبقى؟ ومن ستحمي؟

رجّحت لديها كفة أهلها على الفور. تركت الساحة بسرعة وذهبت إلى البيت. قرّرت الهرب بأبناء أخيها مع من قرّروا النجاة والهرب من الحرب. لم تخش من ظنّ الأمير عمر بها أنّها تركته ونجت بنفسها. ليس أمامها الآن إلّا وجه أمّها وأبناء أخيها.

أسرعت تقودهم إلى المراكب الراحلة. ألقت نظرة أخيرة على الأمير عمر في وسط الميدان. تمنّت له السلامة، ورحلت عن المدينة النازفة. ليست تستطيع رتق جراحها. هي تريد السلامة لعائلتها أوّلًا، واجبها الأوّل الذي نذرت عمرها لأجله. ستترك المعركة يحسمها الأقوى، وتتمنّى أن يكون الخير متمثلاً - من وجهة نظرها - في الأمير عمر.

في المراكب الراحلة كانت ليلي في حالة صمّ وذهول، أخذت تراقب المدينة وهي تتبعد شيئاً فشيئاً. أصوات الصياح اختلطت بأصوات السيوف، وارتفع الغبار إلى السماء معلناً عن معركةٍ طاحنة تدور في محيط القصر الملكي.

ما الذي دفعك للرحيل يا ليلي؟ أليس هذا ما تنتظرينه منذ زمن؟ لطالما رغبت أن تتحقّق عدالة السماء ويقتصّ الله من الباغين.

كانت تحدّث نفسها غير مصدّقة أنّها تركت المعركة ورحلت. أهو خوفها من الفقد مرّة أخرى جعلها لا تفكّر بشيء إلا سلامة عائلتها؟ هل هي متخاذلة؟ أين شجاعتها وجسارتها المعهودة؟

الآن ابتعدت المدينة كثيراً، ولم تعد ترى إلا المياه المحيطة بها من كلّ جانب. نظرت إلى عائلتها وأحسّت بالضياع. إلى أين ستذهب بهم؟ أليس ما يحدث كثيراً عليها؟ أن تتحمّل ثقلاً كهذا، أن تتحمّل أثقلاً عديدة وهي في النهاية أنثى تريد أن تنعم ببعض الأمان والحماية؟

هم عائلتها، وهم مدينتها، وهم الضعفاء والفقراء فيها. ولكنّها خذلت مدينتها، وخذلت أهلها برحيلها. أما كان يتوجّب عليها البقاء ومساعدة الجرحى وحمل المصابين؟ ليس واجباً عليها أن تحمل سيفاً وتتنزّع أحشاء الظالمين، لكن ربّما ضمّدت جرح متألّم، ربّما شحذت همّة، ربّما ساندت الأمير عمر وأبعدت عنه الأذى.

تذكّرتّه، وغاز قلبها في صدرها. ماذا لو أصابه ضرر؟ ماذا لو
غاب وغاب معه الأمل؟

في تلك اللحظات لم تعد ليلى تشعر أنّها ليلى. اجتمع عليها
الخوف والنتيه والغربة والمجهول. شعرت أنّها تركت جزءاً منها في
مدينتها المكلومة، وبأنّ عليها أن تعود... حتى تعود إليها نفسها.

في المدينة المجاورة حطّت المراكب رحالها في فتورٍ وتيه، وضعت
على الرمال حملتها، وكفّت عن الأنين.

نزل الناس بوجوهٍ شاحبة، وأنفاسٍ لاهثة، وأحمالٍ ثقيلة،
ومستقبلٍ مدينةٍ لا أحد يعلم كيف سيكون.

خاتمة

بعد مرور ستة أشهر

إنَّه الحنين، يدفعنا دفعًا إلى الماضي، يجعلنا ندور حول أيامٍ من أعمارنا لا نستطيع تجاوزها والمضيّ قُدماً دون المرور على ركامها. نفتح في القلب نوافذ نطلُّ منها على الذكرى، ثم نغلقها وقد تعطّرت نبضاتنا بعطرها الأخاذ، وسبحت كرات الدم في بحارها فارتوت بعد ظمأً، وسكنت بعد اضطراب.

إنَّه الحنين الذي يجعل الطعام الذي تأكله في وسط عائلتك لا يساويه أيُّ طعامٍ آخر مهما غلت أثمانه.

يجعل الضحك الذي تشاركه مع أحبابك لا يساويه أيُّ صخبٍ ولا أيُّ احتفالاتٍ فاخرةٍ في أيِّ مكانٍ في العالم.

يجعل الأيام بعيداً عن موطنك كلّها رماديّة، لا ألوان فيها، لا حزن حقيقيّ ولا سعادةٍ حقيقيّة، لا شعور يعلو فوق شعور الحنين.

إنَّه الحنين الذي يجعل القصور في أيِّ بلدٍ غير بلدك قبورًا، ويجعل
الأنهار جداولَ فارغةً من الماء، ويجعل السماء موحشةً، والنهار قاتمًا،
والسحاب يمرُّ بثقلٍ، والأمطار تترك القلوب في وحشة، وتثير فيها أسى
وأشجانًا.

"أمي، هل تحبِّين أن أصمَّ لكِ ثوبًا جديدًا من صنع يدي يليق
بالعودة إلى الديار؟" قالتها ليلي وهي تنظر إلى أمِّها بابتسامةٍ مداعبة.

ها هو الحلم يتحقَّق. الحرب خمد لهيبتها بعد جولاتٍ وجولاتٍ من
الصول والجول بين الطرفين. استطاع الأمير عمر في النهاية هزيمة
صفوان واستعادة ملكه وعرش أبيه.

سُجن صفوان في سجن المدينة لحين محاكمته محاكمةً عادلة،
وسُجنت الأميرة زُمرد بعدما اعترف عليها صفوان أنَّها هي القاتلة،
فاعترفت هي أنَّ الأمر كان بتخطيطٍ منه. هكذا هم الأشرار: حينما يقع
أحدهم يأتي بالباقي معه. إنَّها إحدى "مميّزات" الأشرار على الأقل.

عُزل القاضي عن منصبه، وعُزل كلٌّ من كان يعاون صفوان، وتولَّى
الأمور من يثق الأمير عمر بهم. وخلال بضعة أشهر ساد العدل والأمان
في المملكة، وأخذ الناس يردِّدون: "عاش الملك عمر، عاش الملك عمر."

لكن عمر لم يستطع العيش ولم يهنأ بملكٍ بعد رحيلها. علم بعدما
انتهت الحرب أنَّها رحلت فارةً بعائلتها من ويلات الحرب خوفًا عليهم.
بحث عنها كثيرًا وكثيرًا، لكن لا أثر. يريدُها إلى جواره، ولن يهدأ حتى
يلقاها ثانيةً، ويشاركها أحلامه وهمومه وأيامه، ويهبها ما بقي من
عمره.

قرّرت ليلى العودة إلى موطنها ومسقط رأسها بعدما علمت أنّ المدينة أصبحت آمنّة تماماً وخاليةً من أيّ أخطار، بل إنّ بها فرصاً للتجارة والصناعة والعيش بكرامة في ظلّ الحاكم الجديد. كانت تعلم أنّه الأمير عمر، لكنّها آثرت ألاّ تذكّر نفسها بأيّ شيءٍ من الماضي. ستعود لتجد فرصاً أفضل للحياة، ولتكمل مشوارها وواجبها الأوّل والأخير.

دخلت ليلى إلى البيت المهمل منذ قرابة ستة أشهر، فاستعاد الجميع ذكرياتهم فيه، بحزنها وفرحها، بآلامها وآمالها. لقد عادوا، وعاد الزمن بهم. قاموا بالتنظيف وطهو الطعام، ورحّب بهم الجيران والأصدقاء كثيرًا، ثم جلسوا جلسة سمرٍ خفيفة، وانصرف الجميع، ونام أهل البيت.

لكن ما لم تحسب ليلى حسابه أنّ الملك عمر علم بعودتها منذ اليوم الأوّل. لقد كلّف أحد الجنود بمراقبة بيتها كلّ يومٍ على مدار الفترة الماضية، وإبلاغه بأيّ أخبار تخصّها. وعندما رأى الجندي عودتها برفقة عائلتها، طار إلى الملك ليزفّ البشرى إليه.

في الصباح، بينما كانت ليلى تستعيد طاقتها ونشاطها لبداية جديدة لا تعلم من أين، ولكنها تعلم أنّ عليها أن تبدأ، ذهبت - كعادتها حين تضطرب - إلى البحر، رفيقها الأوّل وصديقها الأوفى. وفي طريقها إلى هناك وجدته، ينظر مباشرةً إليها بجسده كلّهُ، يعلنها صريحةً دون كلمات: كنت أنتظرك.

توتّرت كثيرًا ولم تدرِ ماذا تفعل. مشت إليه بتؤدّةٍ وعلى مهل، رفعت رأسها ونظرت إلى عينيه مباشرة، ثم ما لبثت أن هربت بأنظارها بعيدًا

عنهما. ظنّت أنّه غاضبٌ منها أو أنّه سيلومها، لكنّه فاجأها بابتسامه
عذبة، وخاطبها مباشرة:

- "ألم يحن الوقت بعد يا ليلي؟"

لم تدرِ بما تجيب. نظرت إلى البحر، ثم إليه، ثم أطرقت تنظر إلى
الرمال تحت قدميها، وابتسامه تزيّن ثغرها معلنةً دون كلام: ربّما قد
حان.

تمّت

للتواصل مع الكاتبة





ج.م.ع
الإسكندرية

Email: tafaseelpublishing@gmail.com

Mobile: (+2) 01024541339

يمكنكم الحصول على إصداراتنا من داخل مصر
وفي كافة أنحاء العالم من خلال موقعنا الإلكتروني

<https://www.dar-tafaseel.com>

